القومية .. معناها وتاريخها

تأليف

هانس كهن

ترجمة

أمين الشريف

تقديم ومراجعة

إبراهيم فاضل

الكتاب: القومية .. معناها وتاريخها

الكاتب: هانس كهن

ترجمة: أمين الشريف

تقديم ومراجعة: إبراهيم فاضل

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كهن، هانس

القومية..معناها وتاريخها / هانس كهن، ترجمة / أمين الشريف، تقديم ومراجعة/ إبراهيم فاضل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٦٠٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٩٩٢ / ٢٠٢٢

القومية .. معناها وتاريخها

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

القومية هي نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يتميز بتعزيزه مصالح أمة معينة، وخاصة بهدف الكسب والحفاظ على الحكم الذاتي، أو السيادة الكاملة، على وطن الجماعة. وبالتالي، فإن الإيديولوجية السياسية ترى أن على الأمة أن تحكم نفسها، بعيداً عن التدخل الخارجي غير المرغوب فيه، وترتبط بمفهوم تقرير المصير. وتهدف القومية أيضاً نحو التطوير والحفاظ على الهوية الوطنية القائمة على الخصائص المشتركة مثل الثقافة واللغة والإثنية والدين والأهداف السياسية أو الاعتقاد في السلف المشترك، ولذلك تسعى القومية إلى الحفاظ على ثقافة الأمة. وكثيراً ما ينطوي أيضاً على الشعور بالفخر بإنجازات الأمة، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الوطنية. في بعض الحالات، تشير القومية إلى الاعتقاد بأن الأمة يجب أن تكون قادرة على السيطرة على الحكومة وجميع وسائل الإنتاج.

من وجهة نظر سياسية أو اجتماعية، هناك ثلاثة نماذج فكرية رئيسية لفهم أصول وأساس القومية. النموذج الأول؛ المعروف باسم البدائية أو المعمرة، يرى القومية كظاهرة طبيعية. وهي ترى أنه على الرغم من أن مفهوم الأمة قد يكون حديث العهد، غير أن الأمم كانت موجودة دائما. والنموذج الثاني؛ هو الإثنوسيمبولية، وهو منظور معقد يسعى إلى تفسير القومية من خلال سياقه على مر التاريخ كظاهرة دينامية وتطورية وبمواصلة

دراسة قوة القومية نتيجة لروابط الدولة الذاتية بالرموز الوطنية المشبعة بالمعنى التاريخي. النموذج الثالث؛ والأكثر هيمنة هو الحداثة، التي ترى القومية كظاهرة حديثة تحتاج إلى الظروف الهيكلية للمجتمع الحديث كي تخرج للوجود.

أولا: المقصود بالقومية

القومية فكرة وضعية نشأت أول ما نشأت في البلاد الأوروبية شأن غيرها من الحركات والأفكار التي تبحث عن التفلت من رابطة الدين، ويلاحظ أن دعاتها قد اختلفوا في المفهوم الصحيح لها هل هي بمعنى تجمع أمة من الناس وارتباط بعضهم ببعض هدفا وسلوكا وغاية. إما لانتمائهم إلى لغة واحدة –كما يرى القوميون الألمان – وإما لانضوائهم في عيشة مشتركة –كما يرى القوميون الفرنسيون – أم أنها لكليهما. أو أنها لغير ذلك من أمور سياسية واقتصادية كالاشتراك في المعيشة الاقتصادية كما يرى الماركسيون أو الاشتراك في التاريخ واللغة في البلد الواحد كما يرى كثير من دعاة القومية العربية ساطع الحصري، ومن سلك سبيله بحيث يحسون أنهم جميعا كتلة واحدة وأن ما يجري على البعض من آلام وآمال هو ما يجري على الكل فتقوم قوميتهم على هذا المفهوم. والقومية وفق هذا المفهوم هي إيديولوجية وحركة اجتماعية سياسية نشأت مع مفهوم الأمة في عصر لثورات (الثورة الصناعية، الثورة البرجوازية، والثورة الليبرالية) في الفترة من أواخر القرن الثامن عشر. والعناصر الأساسية في

تكوين القومية هي وحدة اللغة ووحدة التاريخ، ما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع، وفي الآلام والآمال.

النزعة القومية

منذ استخدم جويسيبي ماتزيني الزعيم والسياسي القومي الإيطالي هذا المصطلح للمرة الأولى في عام ١٨٣٥ ومنذ تنبه المؤرخون والسياسيون لدلالته المهمة في الثقافة الغربية، احتل مفهوم القومية مكانة بارزة في الفكر السياسي والتاريخي والاجتماعي والثقافي، ولكن تناقض دلالته واختلاف الدور التاريخي والاجتماعي والفكري للنزعة القومية وللفكرة القومية نفسها هو ما يثير الاهتمام غالبًا.

قال ماتزيني: إن القومية هي انتماء جماعة بشرية واحدة لوطن واحد شريطة أن يجمعها تاريخ مشترك ولغة واحدة في أرض هذا الوطن. وأضاف العلماء الألمان وعلى رأسهم هيردر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحدة الثقافة النابعة من وحدة اللغة ووحدة مصادر التأثير الروحي النابعة من الدين ومن التراث الثقافي الواحد في اللغة الواحدة ثم أضاف الماركسيون أسسًا أخرى للقومية أهمها وحدة التكوين النفسي ووحدة السوق الاقتصادية ولكن الدارسين المحدثين مثل (كوهن وكامينا وغيرهما) يكتفون عادة بوحدة اللغة التي تنبع منها وحدة الثقافة والتكوين النفسي ثم التاريخ المشترك الذي يخلق الانتماء - أو الشعور به - لأرض واحدة ومؤسسات اجتماعية وقضايا مشتركة.

وفى خلال القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين ارتبطت النزعة القومية سياسيًّا بحركة التحرير والوحدة في البلدان الغربية التي كانت مقسمة مثل إيطاليا وألمانيا وبولندا ومثل شعوب ودول أوروبا التي كانت خاضعة للاحتلال التركي أو للاحتلال الروسي أو النمساوي في شرق ووسط أوروبا.

ولذلك فإن النزعة القومية ارتبطت بالنزعة الرومانتيكية في الأدب والفكر والفنون، التي كانت تمجد الحرية والبطولة الفردية والتخلص من قيود العصر القديم وتمجد التراث الشعبي كأصدق تعبيرعن التلقائية وعن روح الشعوب وشخصيتها، كما ارتبطت أيضًا بالليبرالية السياسية والاقتصادية التي كانت تريد المساواة الدستورية بين كل الناس في كل الحقوق والواجبات.

ولكن مع تطور المجتمعات الغربية ونضج الاستعمار ارتبطت القومية في الغرب بالمنافسات الشرسة بين الدول على القوة وعلى السيطرة وعلى الأسواق، بينما أصبحت النزعة القومية منذ أوائل القرن العشرين دافعًا قويا ـ أو الدافع الأقوى ـ لحركات التحرير الوطني في (المستعمرات) فيما أصبح يعرف (العالم الثالث) وانبعاثالثقافات الوطنية للشعوب ذات الجذور القديمة،في بلدان العالم الثالث مع نهاية الحرب العالمية الأولى تقريبًا، فكانت هذه النزعة وراء إحياء لغات هذه الشعوب وتجديدها ودعوتها للاهتمام بتراثها القديم الأدبي والفكري والفني والحضاري عمومًا، ووراء الاهتمام

بمعرفة تاريخها وانتماءاتها الأصلية ووراء حركات التأصيل والارتباط بالجذور مع أو إلى جانب أو ضد حركات التحديث حسبما يفهم التحديث، وحسبما يطبق بوصفه تطويرًا للأصيل وتفاعلا مع عناصر قومية أخرى أكثر تطورًا، أو بوصفه تغريبًا، أي التخلي عن السمات الأصلية الموروثة واستعارة سمات الثقافات الغربية بدلا منها.

وفى بعض الحالات ارتبطت النزعة القومية بمحاربة النزعة العالمية (الكوزموبوليتانية) أو بمحاولة الاستفادة منها.

وعلى ذلك خضعت هذه الحركات القومية الجديدة . وتجلياتها العديدة . لدراسات كثيرة في الغرب والشرق، وأضاف المفكرون المحليون إضافات محددة على النظرية التي ارتبطت بالقومية في علوم الاجتماع والنفس والثقافة، ولكنهم أضافوا تأملات تطبيقية غنية وخاصة في العالم العربي وأمريكا اللاتينية واليابان. أما الدراسات الغربية فقد عمدت غلى تشويه فكر القومية أساسًا، أو إلى اختلاق نزعات مضادة لها (طبقية أو أممية) أو إلى تحريض النزعات الدينية والطائفية والعرقية ضدها.

القومية الغربية

يتسم التشكيل القومي في أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، أنه ظهر في مرحلة لم يكن هناك تشكيلات قومية (بالمعنى الحديث) في آسيا وإفريقيا، تتحداه حضاريًّا أو عسكريًّا. واتسمت بدرجة عالية من التجانس والتحدُّد تكاد تقترب من الانغلاق على الذات.

ويلاحظ أن صياغة رؤية الجماعات القومية في غرب أوروبا لنفسها قد استغرق وقتًا طويلا جدًّا تم أثناءه صهر (أو إبادة) أعضاء الأقليات الإثنية التي لا تنتمي للأسطورة القومية.

ثم ظهرت الإمبريالية، فزادت من تحدد الأسطورة ومن عدوانيتها وتجانسها وانغلاقها، وأضافت لها مقولات التفوق والنقاء العنصري التي تختزل الآخر في عنصر واحد متدني، حتى يمكن تحويله إلى مادة استعماليه. وحينما بدأت التشكيلات القومية في شرق أوروبا ووسطها أخذت طابعًا أكثر تطرفًا في صيغتها السلافية والجرمانية، حيث طرحت الفكرة القومية كانتماء عضوي يكاد يكون بيولوجيًّا. وقد تمت الثورة القومية في الغرب تحت راية الطبقة المتوسطة وقيمها، وبخاصة الملكية الفردية والعقد الاجتماعي، وهي قيم انطلقت من مفهوم أن الفرد (وليس المجتمع أو الجماعة) هي نقطة الانطلاق ووحدة التحليل، وقد تم تخيُّل المجتمع على نمط السوق، علاقات خارجية بين أفرادها جوهرها هو العرض والطلب.

وقد ترجم ذلك نفسه إلى رؤية للتاريخ تتسم بالتجانس والتحدد، تركز على أهمية ومركزية الغرب في العالم، وأهمية ومركزية كل ذات قومية . فمجَّد البريطانيون الذات البريطانية ومجد الألمان الذات الألمانية.

وفى هذا الإطار ظهرت أسطورة الإنسان البدائي والإنسان غير المنطقي ولا عقلانية الشعوب المتخلفة.

وعُزلت الحضارات بعضها عن البعض، وعُرِّف التاريخ بأنه ما هو مكتوب وحسب، ثم تم تقسيمه إلى فترات محدَّدة تتحرك نحو هدف حُدِّد مسبقًا يكون عادة هو تحقق الذات القومية الضيقة المتجانسة المحددة. ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته في الأسطورة النازية ثم بعد ذلك في الأسطورة الصهيونية، إذ إن كليهما مجَّد الذات القومية واستبعد الآخر تمامًا.

ويعالج كتاب "القومية .. معناها وتاريخها" لمؤلفه هانس كهن هذه المسألة عبر ثمانية فصول تشكل متن الكتاب، وتتناول أصول القومية، ونهضة القومية والحرية. كما تدرس كل من القومية والتقاليد. القومية والثورة. القومية والسياسة الواقعية، المنازعات القومية، والحركات الجامعة. أما آخر فصول الكتاب فيرصد انتشار الظاهرة القومية.

إبراهيم فاضل

مقدمة المؤلف

لقد كانت القومية من العوامل القوية التي قررت مصير الشعوب في التاريخ الحديث. وقد نشأت إبان القرن الثامن عشر في أوروبا الغربية وانتشرت خلال القرن التاسع عشر في جميع أنحاء أوروبا وأصبحت في القرن العشرين حركة عالمية، ولا زال شأنها يزداد في آسيا وإفريقيا عاما بعد عام. ولكن القومية لا تجري على نمط واحد في جميع الأقطار والأعصار، لأنها ظاهرة تاريخية تتأثر بالنظريات السياسية والأوضاع الاجتماعية السائدة في مختلف البلاد التي تتأصل فيها جذورها.

ومن الواضح أن تفهم حقيقة القومية ومعناها أمر لا غني عنه اليوم في التاريخ الحديث وفي عصرنا الحاضر ..كما كان تفهم الدين أمراً لا غنى عنه في العالم المسيحي إبان القرن الثالث عشر.

والقومية كالدين تظهر في صور شتى ومتعددة. ولا يسعنا أن نفهم تأثير القومية اليوم ولا الآمال والأخطار التي تحملها في ثناياها بالنسبة لحرية الإنسان والمحافظة على السلام إلا بدراسة نشأتها وتطورها التاريخي والقيام بدراسة مقارنة لصورها المختلفة.

هانس كهن

الفصل الأول

أصول القومية

ما هي القومية؟

القومية هي شعور الفرد بالولاء المطلق الواجب عليه نحو دولته القومية. وقد عرف الإنسان في كافة عصور التاريخ بحبه العميق لوطنه، والتقاليد السائدة في بلاده، والسلطة القائمة في إقليمه، وإن كان هذا الحب يتفاوت في درجة قوته. بيد أن الشعور القومي بمفهومه الحديث لم يصبح حقيقة مقررة إلا في نهاية القرن الثامن عشر إذ أخذ هذا الشعور يؤثر بصورة مطردة في كافة نواحي الحياة العامة والخاصة. ولم تطالب كل أمة بأن تكون لها دولتها الخاصة التي تنتظم كافة أفرادها إلا منذ عهد قريب جداً.

وكان الإنسان فيما مضى لا يدين بالولاء للدولة القومية، وإنما يدين به للهيئات الأخرى المختلفة ذات السلطان الاجتماعي، والتنظيم السياسي، والاتحاد المذهبي، كالقبيلة أو العشيرة، ودولة المدينة أو السيد الإقطاعي، والدولة الملكية الوراثية أو الكنيسة أو الطائفة الدينية. ولم يكن المثل الأعلى في كثير من القرون هو الدولة القومية بل هو قيام إمبراطورية عالمية -ولو من الناحية النظرية على الأقل- تنتظم قوميات مختلفة وأجناساً مختلفة على أساس حضارة مشتركة، وبقصد إقرار السلام المشترك.

والقوميات هي وليدة العوامل التاريخية الحية، ولذلك فهي متغيرة لا جامدة. وهي تتألف من جماعات على أعظم درجة من التعقيد كما أنها تستعصي على التعريف الدقيق. وكثير منها يشتمل على عناصر خارجية معينة تميزها عن غيرها من القوميات كوحدة أو اللغة، أو الإقليم، أو الوحدة السياسية، أو العادات والتقاليد، أو الدين. ولكن من الواضح أن وجود القومية أو تعريفها لا يستلزم أي عنصر من هذه العناصر، فشعب الولايات المتحدة لا يدعي وحدة الأصل، ومع ذلك فهو يكون قومية. والشعب السويسري يتحدث بثلاث لغات أو أربع، ومع ذلك فهو يؤلف قومية واضحة المعالم. ومع التسليم بأن العناصر الخارجية ذات شأن كبير في تكوين القوميات فإن ألزم العناصر لتكوينها هو وجود إرادة حية جماعية فعالة. هذه الإرادة هي التي نسميها القومية، هي شعور يسري في السواد الأعظم من الشعب، بل في كل فرد من أفراده. وهذه الإرادة تؤكد لنا أن القومية هي المثل الأعلى، وهي الهيئة السياسية الشرعية الوحيدة، وهي مصدر كل نشاط ثقافي إنشائي ومصدر الرخاء الاقتصادي.

حداثة عهد القومية

وإنك لتجد أفراداً يجاهرون بمشاعر تمت بصلة إلى القومية حتى قبل أن يبزغ عصر القومية، ولكن هذه المشاعر لا تتعدى الأفراد إذ أن الجماهير لم تشعر قط بأن حياتها –من الناحية الثقافية والسياسية والاقتصادية– ترتبط بمصير الهيئة القومية. وقد يثير الخطر الخارجي شعوراً

عابراً بالاتحاد القومي كما حدث في بلاد اليونان خلال الحروب الفارسية وفي فرنسا خلال حرب المائة عام. ولكن الحروب التي نشبت قبل الثورة الفرنسية لم تكن تثير في العادة شعوراً قومياً عميقاً، فقد حارب الإغريق بمرارة ضد الإغريق في الحروب اليونانية البلوبونيزية، كما حارب الألمان ضد الألمان، والإيطاليون ضد الإيطاليين في الحروب الدينية والملكية التي نشبت في أوائل العصور الحديثة دون أن يدركوا إطلاقاً ما ينطوي عليه كنه هذا العمل من "قتل الأخ لأخيه" وحتى في القرن الثامن عشر كان العسكريون والمدنيون في أوروبا يلتحقون بخدمة الحكام "الأجانب" ويخدمونهم في أغلب الأحيان بولاء وإخلاص يدلان على انعدام أي شعور قومي في نفوسهم.

ولم تكن القومية مصدراً للحياة الثقافية إلا منذ عهد قريب جداً، فالتربية والتعليم وتكوين العقل والخلق لم تكن في معظم عصور التاريخ محدودة بالحدود القومية، بل كان الدين في كثير من العصور مصدر الحياة الثقافية والروحية جميعاً كما كان التعليم يقوم في كافة ربوع أوروبا خلال عصر النهضة وبعدها على التقاليد المشتركة للحضارة اليونانية الرومانية. وكانت المثل العليا للفروسية في أوروبا الوسطى وتقاليد البلاط الفرنسي في القرنين السابع والثامن عشر تتجاوز الحدود القومية. ولم يصبح الشعب مرادفاً للأمة والحضارة مرادفة للحضارة القومية وحياة الشعوب وبقاؤها رهناً بحياة القومية وبقائها إلا في أوروبا وأمريكا إبان القرن التاسع عشر، وفي آسيا وإفريقيا إبان القرن العشرين. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القومية

تسيطر على نوازع الجماهير واتجاهاتها كما أصبحت في الوقت نفسه مبرراً لسلطة الدولة ومسوغاً لاستعمال القوة ضد مواطنيها وضد غيرها من الدول.

العبرانيون والإغريق القدامى

على الرغم من حداثة عهد القومية فقد ظهرت بعض خصائصها الأساسية منذ عهد بعيد، كما نبعت أصولها من نفس المعين الذي نبعت منه الحضارة الغربية أي من العبرانيين والإغريق القدامى. وكان كلا الشعبين يشعر شعوراً بيناً باختلافه عن سائر الشعوب الأخرى: فالعبرانيون يشعرون باختلافهم عن الأمميين، والإغريق يشعرون باختلافهم عن البرابرة. ولم يكن حملة الوعي الجماعي عند هذين الشعبين هم الملوك والكهنة بل كان الشعب كله هو الذي يحمل هذا الوعي بين جوانحه أي كل عبراني وكل إغريقي. ولم يخلد التاريخ عند الشعوب الأخرى إلا ذكر الملوك والأباطرة.. أما عند العبرانيين والإغريق فقد كان الطابع القومي للشعب ونشاطه الروحي المبدع هو الذي بقى أثره على الدهر. ويرجع السبب في خلود ذكرهم حتى اليوم إلى أن آثارهم الثقافية المتصلة كانت أقوى من آثارهم العنصرية والسياسية والجغرافية. صحيح أن فكرة الدولة القومية لم تكن معروفة عندهم، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً قوياً بأن لهم رسالة ثقافية.

وقد نشأت عند العبرانيين في الأصل الخصائص الجوهرية الثلاثة التي تتسم بها القومية، وهي فكرة الشعب المختار، والاحتفاظ بتراث مشترك

من ذكريات الماضي وآمال المستقبل، وأخيراً انتظار المنقذ القومي الموعود. ويبدأ تاريخ العبرانيين بالميثاق الذي تم بين الله وشعبه. وكان العبرانيون منذ عهد الأنبياء ينظرون إلى التاريخ كله على أنه عملية موحدة وسلسلة متصلة الحلقات تمتد من مصدر واحد إلى هدف واحد ولهم فيه دور خاص متميز. وكان من المقرر عندهم أن تنتهي قصة التاريخ بملكوت الله حيث يتم التكفير عن خطاياهم، ويتحقق العهد والميثاق. وقد أصبحت عقيدة المنقذ المنتظر فلسفة تاريخية تبرر سنة الله في المعذبين في خلقه. ولم تعمد القوميات المضطهدة وحدها إلى التشبث بأهداب الأمل في مجيء المنقذ المنتظر، بل غدت هذه العقيدة في أحيان أخرى رمزاً للكبرياء القومي ودعوة خطرة في الغالب إلى العظمة والجنوح إلى القهر والغلبة كما أصبحت رمزاً لنضال الفرق الزائغة والطبقات المهضومة في سبيل تحقيق أحلامها وأمانيها. ولا تزال هذه العقيدة تحتفظ ببعض حماسها الديني بوصفها النظرية التي تفسر التقدم التاريخي على أساس غير ديني.

وقد شارك الإغريق العبرانيين شعور التفوق الثقافي والروحي على جميع الشعوب الأخرى، وعبروا عن هذا الشعور بأقوى العبارات. وفضلا عن ذلك فإن الإغريق ابتكروا نظرية الولاء المطلق للمجتمع السياسي وهو دولة المدينة في عرفهم، فكان على كل مواطن أن يفنى فناء مطلقاً في حياة الدولة وأن ينغمس في السياسة من هامة رأسه إلى أخمص قدمه. وقد طالبت اسبرطة وطالب أفلاطون في جمهوريته بتقديم مصلحة الدولة على

مصلحة الفرد تقديماً مطلقاً، وذهبا إلى أن الدولة المثالية هي الدولة المطلقة الاستبدادية. بيد أنه في نهاية القرن الرابع ق.م ساعد حلم الإسكندر بتكوين إمبراطورية عالمية –وهو حلم غير إغريقي في منشئه– ساعد على رأب الصدع بين الإغريق والبرابرة والاتجاه إلى سياسة عالمية جديدة تسمو على سائر الفروق والحدود التي تفصل بين الأجناس البشرية. وقد تأثر الفلاسفة الرواقيون الأغارقة بأمنية الإسكندر هذه، فعلموا الناس أن وطنهم هو العالم المعمور كله وأن الإنسان ليس مواطناً في أمة، وإنما هو مواطن للجنس البشري كله.

عالمية الإمبراطورية الرومانية

وقد أثرت هذه الفلسفة الرواقية في الفكر الروماني إبان القرنين الأخيرين ق.م وذلك في نفس الوقت الذي استحالت فيه دولة المدينة إلى إمبراطورية تنظم الجزء المعروف من العالم في ذلك الحين على أساس قانون مشترك وحضارة مشتركة. وقد مهدت النزعة العالمية للإمبراطورية التي تأصلت جذورها في الحضارة الهيلينية وأن تجردت من تفرد دولة المدينة، مهدت الطريق لانتشار المسيحية العالمية التي تأصلت جذورها في اليهودية وأن تجردت من تفرد اليهود العنصري، ثم اندمجت الإمبراطورية الرومانية بعد انقال عاصمتها إلى القسطنطينية مع الكنيسة المسيحية فأصبحتا هيئة واحدة، وتأثر الفكر السياسي والثقافي في العصور الوسطى بالكنيسة والإمبراطورية معاً فغلب عليه الاعتقاد بأن الجنس البشري مجتمع واحد

ويجب أن يكون مجتمعاً واحداً، وظل الدين –إلى العصور الحديثة– يسيطر سيطرة مطلقة على الحياة الخاصة والعامة في البلاد المسيحية والإسلامية وذلك بما ينطوي عليه من وحدة في التفكير والحياة الاجتماعية والاتجاهات العامة. وقد أضفى دانتي –أعظم شاعر في القرون الوسطى المسيحية– على فكر العالمية وعلى استمرار رسالة الوحدة التي تدعو إليها الإمبراطورية الرومانية– أضفى عليها من العبارات ما يضارع في روعته وخلوده ما أضفى على أسمى فكرة أو أمنية في أي وقت مضى.

النهضة والإصلاح الديني

وقد اتضح في القرن الرابع عشر أنه لا يمكن تحقيق الوحدة التي كان دانتي يرجو أن تتم على يد الأباطرة. وفي الوقت نفسه كان البابا وهو القطب الآخر لفكرة العالمية، يرسف في قيود الأسر في أفنيون. ومن ثم بدأ البحث عن مصادر جديدة للسلطة والوحدة. وتمثل الثورتان الروحيتان العظيمتان المعروفتان باسم النهضة والإصلاح الديني مرحلة الانتقال من العصور الوسطى إلى الحديثة في العالم المسيحي الغربي. وقد أخذ الناس في هذه المرحلة يقرأون الدراسات القديمة والعهد القديم في ضوء جديد وبفهم جديد ووجدوا في كل منهما بذور وعي قومي ناهض، فعادت إلى الحياة كلمات ومعان مستمدة من حب الإغريق القدامى لدولة مدينتهم وحب الرومان الجمهوريين لوطنهم، كما أن الاهتمام الجديد بالتاريخ القديم أثار في

نفـوس المفكـرين الإيطـاليين شـعوراً بمـا يزعمونـه مـن ممـاثلتهم للرومـان الأقدمين.

وكان أدباء العصور الوسطى يسخرون أقلامهم لتمجيد الله وخدمة الكنيسة، أما أدباء النهضة الإنسانيون فكان الأمراء والمدن يستخدمونهم ليسخروا الأقلام في تمجيدهم. ولكن النهضة كانت ظاهرة عابرة ومقصورة على طائفة صغيرة من الأدباء، فعجزت عن خلق أي شعور قومي. ثم إن حركة الإصلاح الديني قضت على الفترة الوجيزة التي تخلص الناس فيها من سلطان الدين إبان عصر النهضة، فعادت المسيحية والخلافات الدينية فأصبحت محور الحياة والنشاط بكافة مظاهرهما، وغدت الشعوب في القرنين السادس والسابع عشر تخوض غمرات القتال لا من أجل المبادئ القومية بل من أجل العقائد الدينية، وغدا الناس يطردون ويعاقبون لا من أجل الخلافات الجنسية واللغوية بل من أجل الردة والبدع الدينية.

وكان الصوت الوحيد الذي ارتفع بالقومية في عصر النهضة هو صوت نقولا مكيافلي (١٤٦٩– ١٥٢٧) وكان من أهل فلورنسة كدانتي، ولكنه كان يعارض النزعة العالمية والدينية وهما النزعتان العظيمتان اللتان كانتا تسيطران على حياة دانتي. وقد طالب مكيافلي في الفصل الأخير من كتابه "الأمير" بقيام رجل قوي يحرر إيطاليا من ربقة البرابرة ولكن مكيافلي كان مثله كمثل صارخ في واد ونافخ في رماد، فلم يكن أي إيطالي يهتم بقضية إيطاليا بل لا يفهم هذه القضية. على أن مكيافلي قام

بدور هام في إعداد الأذهان للقومية، فقد رسم في كتابه "الأمير" صورة للدولة الحديثة الجديدة التي لا تعتمد على أي سند ديني أو أدبي والتي تكون فيها قوة الدولة غاية في حد ذاتها تبرر -فيما يبدو- كل وسيلة توصل إلى هذه الغاية. وقد سبق مكيافلي إلى تصور التطورات المستقبلة حين قال:

"حينما يتعلق الأمر بمصلحة البلاد وحدها يجب ألا نسمح لأنفسنا بالتفكير في اعتبارات العدل أو الظلم، والرحمة أو القسوة، والمدح أو الذم بل يجب أن نسلك أي سبيل يؤدي إلى إنقاذ حياتها والمحافظة على حريتها طارحين جانباً كل ما عدا ذلك من الاعتبارات".

وتوجد صلة مباشرة ضعيفة بين حركة الإصلاح الديني والقومية كما توجد مثل هذه الصلة بين حركة النهضة والقومية، وإيضاح ذلك أن البروتستنتية كانت في الأصل حركة دينية عالمية، شأنها في هذا شأن الكاثوليكية، ولكن حقيقة وجودها قضت على فكرة العالمية الدينية التي سادت في العصور الوسطى، إذ أن مطالبتها برجوع الفرد إلى ضميره هيأ الأسباب لتعدد الفرق والمذاهب الدينية، كما أن مطالبتها بوجوب تلاوة الكتاب المقدس ووجوب الموعظة كركن أساسي من أركان العبادة شد من أزر اللغات الوطنية ثم أن ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات رفع من شأنها، كما كانت هذه الترجمة في كثير من الأحوال نقطة البداية التي انطلقت منها اللغات والآداب القومية في طريق التطور والرقي. وبذلك

أصبحت هذه الآداب في متناول الشعب في الوقت الذي أدت فيه الطباعة إلى تيسير إنتاج الكتاب وتخفيض نفقاته.

وإذا كانت حركة الإصلاح الديني قد ساعدت على تعدد المذاهب الدينية واللغات القومية في العصور الحديثة، فإن النظرية الحديثة عن الدولة وسلطة الأمير التي ظهرت خلال عصر النهضة ساعدت على خلق الدول الملكية التي أصبحت في أوروبا الغربية على الأقل هي النواة التي نشأت منها الدول القومية فيما بعد. وقد قضت الملكيات المطلقة على ضروب الولاء الإقطاعي والمحلي، وبذلك مهدت السبيل لتوجيه هذه الأشكال المتعددة من الولاء نحو مركز واحد. ثم تطلبت زيادة التبعية الاقتصادية المتبادلة وحدات اقتصادية أوسع نطاقاً من الإقطاعيات والمدن والإمارات التي سادت في العهد الماضي. وهذه الوحدات الاقتصادية الكبيرة هي وحدها التي أفسحت المجال الضروري لنشاط الطبقة الوسطى الناهضة ولمشروعاتها الاقتصادية. بيد أن الدول المركزية الجديدة التي أنشأها ملوك أسرة تيودور في إنجلترا ولويس الثالث عشر في فرنسا لم تكن قد ارتقت إلى مرتبة الدولة القومية إذ كان الملك فيها هو الدولة، ولم يكف الملوك أيديهم عن الدولة إلا إبان القرن السابع عشر في إنجلترا، ثم خلال ثورة ١٨٧٩ في فرنسا إذ أصبحت الدولة دولة الشعب، ودولة قومية، ووطناً للأمة. وشعرت الأمة بعد إذ تحررت من رق الملك أنها مسئولة عن مصير البلاد.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأمة علما على الدولة في أوروبا الغربية كما أصبحت الحضارة علماً على الحضارة القومية.

وكان الناس منذ بداية الإمبراطورية الرومانية إلى نهاية العصور الوسطى يهتمون في العادة بالمعاني ذات الطابع العام والطابع العالمي ويرون أن الوحدة الإمبراطورية هي الهدف المنشود. وعلى نقيض هذه النزعة العالمية التي سادت في الماضي كانت القومية الجديدة تمجد المعاني ذات الطابع الخاص والطابع الإقليمي كما تمجد الفروق القومية. وقد زادت هذه النزعات وضوحاً بتطور القومية في أخريات القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين. وكانت المعايير العامة للحضارة الغربية في القرنين السابع والثامن عشر أي في المرحلة الأولى للقومية في الغرب، ثم بقاء التقاليد الرواقية والمسيحية والاهتمام بالأمور ذات الصبغة الإنسانية والعلمية والإيمان بالعقل –وهو إيمان واحد في كل مكان– ثم الإيمان بالحس المشترك[1] – كل أولئك كان من القوة بحيث حال دون ظهور النزعات القومية بصورتها الكاملة، كما حال دون القضاء على فكرة المجتمع الإنساني. ومن هنا ظهرت القومية في بداية أمرها بالغرب وكأنها تساير النزعات العالمية، وتدعو إلى محبة الجنس البشري.

(١) Common sense وهي الترجمة التي أقرها مجمع اللغة العربية في الدورة التاسعة عشرة. وهذا نص ما ورد في مجلة المجمع جـ٩ في تعريف الحس المشترك: "يطلق لدي أرسطو والإسلاميين على تلك القوة التي تلتقي فيها صور الجزئيات ويطلق الآن ما يرادف الرأي الشائع وهو مجموع المبادئ المشتركة في الأذهان جميعاً".

الفصل الثاني

نهضة القومية والحرية

أول أمة حديثة

كانت إنجلترا أول أمة تجلت فيها القومية بمظهرها الكامل إبان القرن السابع عشر. وقد تبوأت إنجلترا مكان الزعامة لأول مرة في هذا القرن بين الأمم التي اشتمل عليها المجتمع الأوروبي، وباشرت زعامتها في تلك الميادين التي امتاز بها العصر الحديث والتي تميزه بشدة عن غيره من العصور السابقة ألا وهي الروح العلمية، والنشاط والفكر السياسيان، والمشروعات التجارية. وقد سرت في الشعب الإنجليزي ثقة عظيمة بسبب الآفاق الجديدة التي تفتحت أمامه فشعر بأن القدر قد ألقى على عاتقه رسالة التاريخ وشعر عامة الشعب الإنجليزي بأنهم هم الشعب المختار في وقت يعد نقطة تحول كتب لها أن تكون بداية حركة إصلاحية حقيقية جديدة. وقد تحدت الثورات التي قامت في إنجلترا باسم حرية الإنسان في القرن السابع عشر تلك التقاليد الاستبدادية التي ترتكز عليها الكنيسة والدولة وذلك لأول مرة في التاريخ.

وقد ساعد المتطهرون على إحياء الأفكار الرئيسية الثلاثة التي تقوم عليها القومية العبرانية إلا وهي فكرة الشعب المختار وفكرة العهد والميثاق وانتظار المنقذ الموعود، فكانت الأمة الإنجليزية تعد نفسها إسرائيل الجديدة، وبذلك اصطبغت القومية الإنجليزية بصبغة دينية وظلت محتفظة

بهذا الطابع الأصيل على طول الخط، فلم تعرف قط ذلك الصراع المرير الذي استعر أواره بين القومية والدين في الأقطار الأخرى، وإن كانت قد اقترنت بفكرة الحرية الفردية إلى درجة لم تعرف في أي مكان آخر. وكان جون ملتون (١٦٠٨- ١٦٧٤) أكبر مؤيد لهذه الحرية في كتاباته، فلم تكن القومية عنده صراعاً من أجل الاستقلال الجماعي والتحرر من النير الأجنبي بل كانت تأكيداً لتحرير الفرد من سلطة الحكومة وإثبات الشخص لوجوده حيال حكومته أو كنيسته، أي "تحرير الإنسان من ربقة العبودية والخرافات" وكانت الحرية في نظر ملتون حرية دينية وسياسية وشخصية. وقد ختم ملتون خطبته في البرلمان الإنجليزي دفاعاً عن حرية الطباعة بدون ترخيص بهذا النداء "امنحني حرية المعرفة والكلام والمناقشة طبقاً لما يمليه على ضميري قبل أن تمنحني أية حرية أخرى".

وقد صرح أوليفر كرمويل (١٥٩٩- ١٦٥٨) زعيم ثورة المتطهرين أن هذه الثورة قد أبرزت لأول مرة على مسرح التاريخ قضيتين عظيمتين، وأعلن في الخطبة التي ألقاها أمام البرلمان في ٤ سبتمبر سنة ١٦٥٤ أن حرية الضمير وحرية الرعية نعمتان جليلتان جديرتان بأن يجاهد الإنسان من أجلهما كأية نعمة أسبغها الله على الإنسان وكانت "الكنيسة الحرة" تتطلب دولة حرة ولكن الظروف لم تكن قد تهيأت إذ أن ثورة المتطهرين لم تخلص من آثار حماستها العاطفية والتعصب الحقيقي الذي اتسم به عصر الدين، وكانت ظواهر الأمور تدل على أن عودة الملكية قضت على ثورة

المتطهرين، بيد أن الثورة المجيدة التي قامت بعد وفاة كرمويل بثلاثين عاما أحيت أهدافها الرئيسية وأكدتها ألا وهي خضوع الملك لسلطان القانون، وجعل الكلمة العليا للبرلمان في أمور التشريع، ونزاهة القضاء، وتأمين حقوق الأفراد، وحرية التفكير والصحافة، والتسامح الديني.

وقد سمت الثورة المجيدة بالحريات الجديدة، فنأت بها عن حمأة الصراع الحزبي والديني القائم على التعصب فجعلتها الأساس المشترك للأمة كلها، ومكنت لها من تقاليد الأمة التاريخية بوصفها "الحقوق القديمة والحقيقة لشعب هذه المملكة" ولقد تحولت ثورة المتطهرين إلى دكتاتورية برلمانية وعسكرية، أما الثورة المجيدة فقد أرست دعائم النظام الجديد الناشئ الذي يقوم على الحرية والتسامح في قرار الحياة القومية والأخلاق القومية بحيث لم تقم أية محاولة خطيرة منذ ذلك الوقت للقضاء عليه، وقد هيأت الثورة المجيدة الجو الصالح للتوفيق والمناقشة والتسامح، وهو الجو الوحيد الذي تستطيع فيه الديمقراطية أن تشبع في الحياة القومية.

القومية والحرية

كانت القومية بوصفها قوة فعالة في التاريخ مقصورة في القرن الثامن عشر على ساحل الأطلنطي الشمالي، كما كانت تعبر عن روح العصر في اهتمامها بالفرد وحقوقه وفي مشاركتها في الطابع الإنساني الذي اتسم به عصر النور. وقد اتفق ظهور القومية الإنجليزية في القرن السابع عشر مع ظهور الطبقة الوسطى المشتغلة بالتجارة في إنجلترا، ووجدت كلتاهما في

فلسفة "جون لوك" السياسية خير معبر عنهما. وقد افتتح لوك أول كتاب له بعنوان "رسالة في الحكم" بعبارة تلخص بأسلوبه الخاص وجهة نظره القومية والإنسانية، فقال "الرق مرتبة وضيعة وحقيرة من مراتب الإنسانية وهو يتنافى صراحة مع ما طبعت عليه أمتنا من السماحة والشجاعة بحيث يتعذر علينا أن نتصور رجلاً إنجليزياً فضلا عن أي إنسان نبيل يدافع عن هذا النظام". وقد أسدت فلسفة لوك أيضاً يداً بيضاء إلى الطبقات الوسطى الجديدة بتأكيدها حق الملكية وما استحدثته من مبررات جديدة للملكية مبناها العمل والكد لا الغزو والفتح. على أن لوك خدم الطبقات الأخرى بالمبدأين الأساسيين اللذين نادى بهما ألا وهما أن حرية الفرد، وكرامته، وسعادته، هي مقومات الحياة القومية بكافة أنواعها وأن حكومة الأمة أمانة أدبية مرهونة برضا المحكومين رضاء حراً. وكانت إنجلترا هي البلد الوحيد الذي انكسرت فيه شوكة الحكم المطلق في الوقت الذي خرجت فيه السلطة المطلقة الاستبدادية ظافرة من معارك القرن السابع عشر وهي، السلطة التي كان الملك والكنيسة يتمتعان بها في فرنسا وفي جميع أنحاء أوروبا بوجه عام. ففي إنجلترا وحدها نشأ رأي عام يعبر الشعب عنه بحرية وقوة، وقد استطاع هذا الرأي العام أن يؤثر في سير الشئون القومية، وإن ظلت مقاليد الأمور مؤقتاً في أيدي حكومة الأقلية. على أن روحاً قومية سرت في جميع النظم الإنجليزية وخلقت رابطة قوية بين الطبقة الحاكمة والشعب. وقد تأثر الفلاسفة الفرنسيون بالقومية الإنجليزية الحرة، فجاهدوا في القرن الثامن عشر ضد الاستبداد والتعصب وسيطرة الكنيسة

والدولة، ولم يكن تأثير إنجلترا في فرنسا الذي عززته زيارة فولتير لإنجلترا خلال المدة من سنة ١٧٢٦ إلى سنة ١٧٢٩ وتقاريره عن الحياة والحرية الإنجليزية –مقصوراً على فرنسا بل تعداها إلى غيرها من البلاد. ذلك أن فرنسا في القرن الثامن عشر كانت تتبوأ مكان الزعامة الفكرية في أوروبا لمدة مائتي سنة خلت كما أن اللغة الفرنسية أصبحت اللغة العامة للطبقات المتعلمة في كل مكان، وبذلك انتشرت الأفكار الإنجليزية عن الحرية الشخصية والتنظيم القومي في الخارج عن طريق المفكرين الفرنسيين فاستوعبتها وتمثلتها نفوس أهل الغرب عامة إبان القرن الثامن عشر بفضل عبقرية الفكر الفرنسي ووضوح اللغة الفرنسية. وبذلك اكتسبت الحريات الإنجليزية القومية والتاريخية أهمية عالمية، فأصبحت مثالا ليقظة الفكر الحر في ذلك العصر. ولئن كان لها قليل من التأثير المباشر في الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التي سادت فرنسا قبل سنة ١٧٨٩، لقد كانت عاملاً قوياً في مولد القومية الأمريكية سنة ١٧٧٥.

القومية في أمريكا الشمالية:

قامت الحياة السياسية والعقلية في المستعمرات الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية على أساس ثورة المتطهرين والثورة المجيدة. وقد أتيح للتقاليد الإنجليزية الخاصة بالحريات الدستورية والعرف العام أن تترعرع بحرية في فضاء القارة الواسعة التي لم يكن قد تم ارتيادها أكثر مما ترعرعت

في وطنها القديم، ذلك أنه لم يكن في المستعمرات آثار من عهد الإقطاع تعوق نموها.

وقد ظل المتطهرون في إنجلترا الجديدة يخالجهم الشعور بأنهم هم الشعب المختار الجديد، وأنهم يماثلون العبرانيين القدامى، وذلك في وقت اختفى فيه هذا الشعور من إنجلترا بالفعل. ويبدو أن العناية الإلهية فتحت آفاقاً عظيمة أمام البلاد الجديدة. وقد زاد من أهمية الأراضي البكر الأمريكية تمجيد الطبيعة البدائية النقية، وهي الفكرة التي شاعت في أوروبا في القرن الثامن عشر، كما أن التفسير العقلي الجديد الذي أضفاه الفلاسفة الفرنسيون على الحرية الإنجليزية ساعد على توسيع أفق الحريات التاريخية في العالم القديم فأصبحت حريات عالمية في العالم الجديد، وشعر الأمريكيون الذي تربوا في أحضان الحرية الإنجليزية بمقدرتهم على خلق نوع أسمى من الحرية. ولم يؤد نضالهم في سبيل تفسير الدستور الإنجليزي –وهو نضال كان في أساسه حرباً أهلية بين حزب المحافظين والأحرار داخل الإمبراطورية البريطانية– إلى ظفر الإمبراطورية كلها بدستور أكثر حرية فحسب، بل لقد أدى أيضاً إلى ميلاد أمة جديدة ولدت في أحضان الحرية بإرادة الشعب، أمة لم تنشأ في ظلمات التاريخ السحيق أو في ظل التقاليد الدينية والإقطاعية في العصور الوسطى ولكنها نشأت في وسط الأضواء الباهرة التي انبعثت في عصر النور.

ومن الواضح أن الأمة الجديدة لم تقم على الأصل المشترك أو الديانة المشتركة، ولم تكن تفترق في لغتها وتقاليدها الأدبية والقانونية عن الأمة التي كانت تريد أن تتميز عنها. وكانت الأمة الجديدة وليدة جهود مشتركة وكفاح مشترك من أجل الحقوق السياسية والحرية الفردية والتسامح الديني، وهي حقوق وتقاليد إنجليزية الأصل ولكنها الآن ارتقت إلى مرتبة الحقوق الثابتة للناس جميعاً وأصبحت أمنية ورسالة للناس قاطبة. وكان تعدد الديانات والتسامح بينها في أمريكا إبان القرن الثامن عشر إلى درجة لم يسمع بها إنسان قط في ذلك الوقت لا يضارعه إلا تعدد وتسامح السلالات العنصرية التي كانت تمتزج في بوتقة الانصهار.

وكانت الرابطة بين الأمة الجديدة هي فكرة واحدة، هي فكرة الحرية في ظل القانون كما يعبر عنه الدستور. وقد أصبح الدستور الأمريكي نافذ المفعول في مطلع سنة ١٧٨٩ أي السنة التي قامت فيها الثورة الفرنسية وثبت هذا الدستور –على نقائصه– على محك الزمن أكثر من أي دستور آخر على وجه الأرض. ويرجع السر في بقاء هذا الدستور إلى أن الفكرة التي يقوم عليها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود الأمة الأمريكية بحيث لو لم توجد هذه الفكرة لما وجدت هذه الأمة، فلأول مرة في التاريخ قامت أمة على أساس هذه الحقائق التي تعتبر أموراً بديهية وهي أن الناس جميعاً ولدوا سواسية وأن الخالق "جل وعلا" وهبهم بعض الحقوق الثابتة، ومن هذه

الحقوق حق الحياة والحرية والسعي وراء السعادة، وهي حقائق لا تستطيع الأمة أن تتخلى عنها دون أن تهدم الأساس الذي تقوم عليه.

وقد أثرت هذه الحقائق في المرحلة الأولى من مراحل الثورة الفرنسية التي أجلست القومية الفرنسية على عرش الملكية الفرنسية بوصفها عاملاً حاسماً في تاريخ فرنسا. بيد أن عنصراً جديداً دخل في القومية الفرنسية ألا وهو خرافة الشخصية الجماعية كما تخيلها روسو صاحب الخيال الخصب المضطرب.

جان جاك روسو:

لقد تأثر عصر النور أو عصر العقل بآراء الإنجليز، فنادى بحرية الشخصية المتحررة. وقد ساهم روسو (١٧١٢– ١٧٧٨) في هذا الرأي الذي ينادي بحرية الإنسان. ولكنه شعر أن الحرية الفردية لا تكفي فرأى إزاء ما شاهده من انهيار السلطة الدينية والملكية القديمة في الدولة وجوب إقامة الشخصية الجماعية للأمة باعتبارها محوراً ومبرراً للمجتمع والنظام الاجتماعي. لقد تجسدت سيادة الدولة في الأمير الذي كانت إرادته هي الدولة. فكيف يعبر السيد الجديد وهو الشعب عن إرادة موحدة؟ كيف يصبح الشعب شخصاً واحداً كما كان الأمير شخصاً واحداً؟ لتحقيق هذه الغاية يتعين أن تتوثق روابط الألفة بين أفراد هذا الشعب، وأن يتولد فيهم الشعور بالمصير المشترك، والمسئولية المشتركة. وكان روسو قد ولد في جمهورية مدينة جنيف السويسرية، فكان يعاوده الحنين إلى دول المدينة

الإغريقية القديمة وفناء المواطنين في دولة مدينتهم فناء مانعاً جامعاً. ورأى روسو في فرنسا حيث كان يعيش في المنفى مساوئ الحكم التعسفي على يد الأمير وحاشيته، فأراد أن يستبدل به حكماً سديداً يخضع المرء في ظله للنظام الاجتماعي بمحض إرادته واختياره، ويمتثل للقوانين لأنه سنها بنفسه ولنفسه. وتحقيقاً لهذه الغاية ألف روسو كتابه "العقد الاجتماعي" (١٧٦٢) الذي تصور فيه مجتمعاً مثالياً تتألف عناصره من الفضائل الوطنية المعروفة في دول المدينة القديمة والتقاليد الكالفنية التي تقضي بأن تكون جنيف أمة مقدسة، وتدعو إلى الاعتزاز بالاستقلال الذي تشعر به الجمهوريات السويسرية الريفية. وكان روسو يؤمن أن المجتمع السياسي الحق لا يمكن أن يقوم إلا على فضائل المواطنين وتفانيهم في محبة الوطن، وأن التربية العامة يجب أن تهدف إلى غرس هذه المشاعر في نفوس الناشئين.

وكان روسو أيضاً أول كاتب عظيم أبى أن يؤمن أن الحضارة الارستقراطية والفكرية في عصره تمثل أرقى نظام وصل إليه الإنسان في مدارج تطوره، فقد تملكه الفزع لما شاهده في المجتمع الفرنسي في زمانه من حب الذات، والانهماك في الملذات، وعدم الاكتراث بالمسئولية عن الرفاهية الاجتماعية، فنادى بوجوب الاهتمام بأمر المجتمع، وإصلاح القلوب لا العقول، وتربية العواطف والمشاعر النبيلة، والإقلال من أسباب الترف والنعيم، وتكريس الحياة لفعل الخير. وكان يرى أن الفضائل الحقة التي يخطئها المرء للأسف بين الطبقات المتعلمة الراقية تتجلى في أوساط

عامة الشعب ولاسيما الفلاحين منهم لأنهم يعيشون بالقرب من الطبيعة التي هي ينبوع كل خير دون أن تفسدهم زخارف المدنية الزائفة. وكان روسو يرى أن ارستقراطية المولد والفكر لم تعد هي قطب الرحى في الأمة تمدها بأسباب القوة والتوجيه، وإنما الشعب نفسه هو الذي يتبوأ هذه المكانة. وبدا له أن الأساس الأدبي والمنطقي الوحيد الذي تقوم عليه الدولة هو تعاون المواطنين الفعال بوصفهم سواسية، وشعورهم بالإخاء والحب المتبادل. وكان يؤمن في الوقت نفسه بأن محبة الجماعة القومية، والوطنية المتوقدة التي تكاد تسمو إلى مرتبة الدين هي الغذاء الذي ينمي الشخصية الإنسانية. ولقد وضع روسو في عالم خياله –والعقد الاجتماعي لروسو هو عالم خيالي كجمهورية أفلاطون– وضع السيادة في يد قوم يتحلون بالفضيلة والاتحاد، ويعبرون عن إرادتهم "بإرادة عامة" هي –في عالم الخيال– وليدة إرادات جميع الأفراد، ومع ذلك يجوز أن تختلف عن أية إرادة فردية لأنها لا تعبر عن شيء عرضي أو تعسفي، وإنما تعبر عن معنى يتفق والعقل والخير– عن الوطنية الفاضلة التي يجب أن تحدو كل عضو من أعضاء المجتمع.

وقد أثرت آراء روسو تأثيراً عظيماً في الأجيال التي جاءت بعده، فكان لإيمانه بقوى الطبيعة النافعة، وطهارة القلب الإنساني الذي لم تفسده الحضارة وإصراره على الحرية الفردية، ودعوته إلى الوطنية القومية– تأثير كبير في تفكير الكثيرين من أهل الغرب بين سنتي ١٧٧٠ و ١٨٥٠، وكان

الجيل الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر يرى أن الجمهورية الناشئة عبر المحيط الأطلسي أشبه شيء بالمجتمع الذي يحقق آمال روسو، مجتمع قومي لا بلاط فيه ولا ارستقراطية، ولا كنيسة رسمية ولا كهنوتية مسيطرة، ولكنه ينتظم قوماً يحيون حياة الفطرة والبراءة التي تتسم بالفضيلة والبساطة، ولا يبدو فيه من المصالح المكتسبة وزخارف الحضارة ما يعرقل نمو ما جبل عليه الإنسان من حب الخير. وإذا كان أنصار الحرية الإنجليزية وأهل الغيرة الخلقية الإنجليزية الأمريكية قد قاموا بأعمال عظيمة في البيئة البريطانية غير المواتية وفي الغابات السحيقة في العالم الجديد، فما أجل الأعمال التي تستطيع فرنسا أن تقوم بها إذا أتيح لها أن تسعد بنعمة العقل والحرية، وهي البلاد التي حبتها الطبيعة والحضارة بالحظ الأوفر، وأحرزت شهرة عالمية، حتى في ظل الحكام الطغاة!

الثورة الفرنسية

كان إحياء فرنسا هذا في ظل حكم تسوده الحرية الحقة هو الهدف الأول لثورة ١٧٨٩، وكان من الواضح أن الزعامة السياسية والثقافة التي كانت فرنسا تتولاها في العالم الغربي على عهد الملكية المطلقة في القرن السابع عشر تسير في طريق التدهور، فقد خبا نجم الجيش الفرنسي، وفقدت الإمبراطورية الفرنسية شطراً كبيراً من أملاكها، وأصبحت مالية فرنسا العامة على شفا حفرة من الإفلاس، ورسفت حياة الأمة الاقتصادية

والعقلية في أغلال التقاليد البالية من نظم وقوانين، وسرى في المجتمع الفرنسي كله شعور بالقلق العميق.

وكانت الثورة الفرنسية في الأصل تستمد وحيها من نظام الحرية الدستورية والحكومة المقيدة في إنجلترا. ولكن تقاليد الحكم الاستبدادي والمطلق في فرنسا لم تساعد كثيراً على إعداد الشعب للحكم الذاتي وتقييد سلطات الملك. وبتقدم الثورة حلت سيادة الشعب المطلقة محل سلطة الملك المطلقة، وتأثر كثير من الفرنسيين بروح روسو، فحملوا لواء الدعوة إلى إثارة الحماسة الوطنية العامة، وبعث الإرادة القومية. وكانوا يسترشدون في دعوتهم بما كانت تتحلى به اسبرطة وجمهورية روما من فضائل وطنية مزعومة، ومن وطنية صارمة، وروح مكافحة. وكانت القومية التي ظهرت بين الشعوب المتكلمة بالإنجليزية في القرن الذي انقضى بين الثورة المجيدة ونشوب الثورة الفرنسية تحترم حقوق الفرد، فكانت الدولة تعد أداة لحماية النشاط الفردي الحر، وجاءت القومية التي نادت بها الثورة الفرنسية، فأكدت أن واجب الفرد وكرامته يرتبطان بنشاطه السياسي، وأن كماله الذاتي رهن بفنائه في دولته القومية.

وقد شاهدت سنة ١٧٨٩ مولد الأمة الفرنسية في فورة مفاجئة من فورات الحماس، وكانت القوى المركزية الطاردة لا تزال قوية جداً في مطلع هذه السنة، فكانت البلاد مقسمة إلى ولايات ومدن لها قوانينها التقليدية الخاصة، واقتصادها المحلي، وأوزانها ومقاييسها الخاصة، كما كانت مقسمة

إلى طوائف وطبقات لها امتيازاتها المحددة وحقوقها وواجباتها الخاصة، فأدى كل ذلك إلى إقامة حواجز لا يمكن تخطيها بين كافة نواحي الحياة القومية. وفي سنة ١٧٨٩ دعي مجلس طبقات الأمة لأول مرة منذ سنة ١٦١٤، ولكن الفترة بين هاتين السنتين كانت طويلة بحيث تغيرت في أثناءها الأوضاع الاجتماعية تغيراً كبيراً. وقد تحول مجلس طبقات الأمة تحت ضغط الطبقة الثالثة إلى مجلس الأمة، وهو هيئة لم تعد تمثل طبقات منفصلة بل تمثل أمة متحدة. وفي شهر أغسطس اتخذت خطوة جديدة وهائلة نحو مولد الأمة الفرنسية، فأزالت جميع الحواجز الجغرافية والطبقية، وأقدمت الطوائف والطبقات المختلفة على إلغاء امتيازاتها وحقوقها التاريخية بكافة أنواعها، وتحققت الوحدة القومية لأول مرة. وفي الشهر نفسه صدر إعلان حقوق الإنسان والمواطن، فأرسى دعائم نظام جديد مبناه أمة تتألف من أفراد أحرار يحميهم القانون. وكان هذا الإعلان الذي جعل استقلال الفرد نقطة البداية والغاية المبررة لكافة المجتمعات تتويجاً لعصر النور والثورة المجيدة وثورة ١٧٧٥- ١٧٧٦، إذ حمى هذا الإعلان كرامة الفرد وحقوقه الخاصة وسعادته إزاء الضغط المتزايد الذي يواجهه من الحكومات والنزاعات الاشتراكية. وقد أدى الإيمان بالإعلان خلال القرن التاسع عشر إلى حماية القومية الجديدة من التحول إلى مذهب استبدادي جماعي، على أن خطر هذا التحول كان ماثلاً بالفعل في التحمس للوحدة القومية واستكمال أسباب القدرة والكفاية الحقة، وهو التحمس الذي قامت على أساسه الثورة الفرنسية والذي دفع القومية الفرنسية إلى مجاوزة الحد الذي

وصلت إليه في إنجلترا والولايات المتحدة فجنحت إلى المركزية المفرطة في الحكم، وتحولت إلى ديانة زائفة.

وكانت النزوات التي أثارتها هذه القومية الجديدة تهدد بتدمير الجسور الواقية التي بناها القرن الثامن عشر لحماية الفرد وحريته، واتفق ظهور القومية الجديدة في فترة الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، وازدياد النشاط الاجتماعية والنشاط الرأسمالي، واستخدام الآلات الصناعية، ونشر التعليم، مما دفع الحياة إلى السير الحثيث في طريق التقدم. واختفت القرى والطوائف الحرفية ذات النظام التقليدي الموحد، وحلت محلها المدن غير المنظمة التي اكتظت بالجماهير النازحة من الريف، وخلقت هذه الجماهير ونفسية الجماهير مشاكل جديدة لما كان يعوزها من الاستقرار الذي ساد المجتمع التقليدي، فأصبحت أسلس انقياداً للآمال الخيالية والمخاوف الكاذبة. وكان من ظواهر التحول السريع الذي امتاز به هذا العصر ظهور نخبة من القوم على مسرح الزعامة، في تعاقب سريع، ممن مهروا في استغلال آمال الجماهير ومخاوفهم، وأصبحت القومية بالنسبة للزعماء والجماهير أكبر أداة للتنظيم والظهور (وقد أخذت الاشتراكية تنافس القومية فيما بعد إلى أن امتزجت في الهتلرية والاستالينية هاتان الدعوتان الثوريتان القويتان المتصلتان بالجماهير).

ومنذ عهد الثورة الفرنسية صارت المسائل الاجتماعية والاقتصادية تقوم بدور تزداد أهميته حيثما حلت القومية. وهكذا أدت القومية الجديدة

إلى نتيجتين متناقضتين بين سنتي ١٧٨٩، ١٧٩٥: الاعتراف بكرامة الفرد في إعلان حقوق الإنسان، وظهور النزعات الاشتراكية المناهضة لحقوق الأفراد. وهكذا صار العصر الجديد يواجه طريقين مختلفين، مثله في ذلك مثل يانوس[١] ذي الوجهين.

القومية الجديدة في ميدان العمل:

كان البابا يملك منطقة فنسين وافنيون داخل فرنسا، وظلت هذه الأملاك البابوية قائمة لأسباب تاريخية، فعادت الآن هاتان المنطقتان فطالبتا بتطبيق المبدأ القومي الجديد الذي ينادي بحق تقرير المصير رغبة في الاتحاد مع فرنسا، وتقرير إجراء استفتاء ليعلن الشعب إرادته. وقد اتبعت هذه الطريقة في حالات كثيرة في عصر القومية، ولكنها مع تقدم الثورة الفرنسية أسيء استعمالها باسم المصلحة القومية، فاستغل الحنين إلى "الاتحاد" وزيفت إرادة الشعب. على أن الشعور بالاتحاد والإخاء القومي كان يصدر بمحض الإرادة والاختيار في بداية أمره في فرنسا. وقد تجلى هذا الشعور على حقيقته في عيد الاتحاد الذي احتفل به لأول مرة في ١٤ يوليه سنة ١٧٩٠ بمناسبة مرور عام على استيلاء الشعب الباريسي على سجن الباستيل، فأقامت كل الطوائف في فرنسا مذبحاً للوطن نقشت عليه هذه العبارة "يولد المواطن ويحيا ويموت في سبيل الوطن" وكان الناس

(١) janus من معبودات الرومان، وله عندهم وجهان، وجه ينظر إلى الأمام، وآخر ينظر إلى الخلف.

يحتشـدون أمامـه، وينشـدون الأناشـيد الوطنيـة، ويقسـمون اليمـين بتأييـد الوحدة القومية، وإطاعة المشرع الأعظم وحمايته، ألا وهو الشعب صاحب السيادة.

ولكـن هـذه الوحـدة القوميـة لم تـدم طـويلاً، ذلـك أن الانقسـامات السياسـية والدينيـة فرقـت كلمـة الأمـة، فطالبـت الأمـة الجديـدة بكنيسـة جديدة لأنها كانت تسيء الظن بالروابط الدينية التقليدية العامة. وكانت جميـع التصـرفات الأساسـية في الحيـاة الإنسـانية كشـئون المـيلاد والـزواج والوفـاة تخضـع حـتى الآن لاختصـاص الكنيسـة وتسـتمد منهـا أهميتهـا وشـرعيتها، أمـا في سـنة **١٧٩٢** فقـد أصـبح مـن المحـتم تسـجيل كافـة التصـرفات الخاصـة بالأسـرة والأحـوال الشخصـية أمـام سـلطات الدولـة القوميـة الجديـدة ولم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد بـل لقـد ذهبـت الوطنيـة الجديدة في فورة حماستها الأولى إلى أبعد من ذلك، فأطلقت أسماء جديدة على أيام التقويم، والمواليد من الأطفال، وشوارع المدينة تعبر عن الديانة الوطنيـة الجديـدة، وأكرهـت كثيراً مـن اتبـاع الديانـة التقليديـة القديمـة علـى الاختياريين الديانة القديمة وبين العقائد والسلطات القومية الجديدة، وهو اختيار يثير الصراع بين المرء وضميره. وكانت أكثر شئون التربية والتعليم موكولـة حتى ذلـك الحين إلى رجال الكنيسـة، فغيرت القوميـة الجديـدة مـن هذا الوضع تغييراً أساسياً.

وقد أنشأت الثورة الفرنسية أول نظام شامل للتربية القومية يهدف إلى خلق جيل جديد من المواطنين الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة والوطنية، وأصبحت التربية تعد لأول مرة واجباً من واجبات الأمة وأجدر الأشياء باهتمامها وعنايتها، وساد الشعور بأن التربية العامة وحدها هي التي تستطيع أن تحقق وحدة الوطن واتحاد مواطنيه، فتحول الاهتمام من الدراسات القديمة والإنسانية إلى التاريخ الوطني والأناشيد الوطنية، وإلى الأشغال اليدوية والألعاب الرياضية ولو من الناحية النظرية. ودعاهم إعجابهم بالأمة الجديدة إلى أن يجعلوا عاصمتها قبلة الفن في العالم، فحولوا اللوفر سنة ١٧٩٣ –وهو القصر الملكي السابق– إلى أول متحف قومي. ولم تعد الفنون وبخاصة الموسيقى وسيلة للمتاع الشخصي، والتعبير عن العواطف الدينية، بل تقررت الاستعانة بها لإثارة العواطف القومية، فكان نشيد المرسيليز –وهو النشيد الوطني المشهور– يحرك أوتار القلوب عند عزفه على الآلات الموسيقية. وكانوا ينظمون الأعياد بحيث تشتمل على أروع المناظر التي يشترك فيها الشعب ويقوم فيها بالدور الرئيسي، كما كانت الاحتفالات والمدارس تساعد أيضاً على نشر اللغة باعتبارها اللغة الوحيدة التي تستعملها الأمة قاطبة على حين كان البريتون والفلمنكيون والباسك، والالزاسيون، والكاتاليون، والبروفنسيون، يستعملون مصطلحاتهم الوطنية فيما مضى.

وكانوا يهتمون قبل الثورة باللغة اللاتينية والمؤلفين القدامى أكثر من اهتمامهم باللغة الفرنسية والكتاب الفرنسيين، ولكن القومية الجديدة غيرت من هذا الوضع. وقد عبر مكسمليان روبسبيير (١٧٥٨-١٧٩٣) خير تعبير عن هذا الشعور الجديد في تقريره إلى المؤتمر الوطني بشأن الأعياد القومية في ١٨ فلوريال ١٧٩٤ "نعم! هذه البلاد التي نسكنها، والتي حبتها الطبيعة بمحبتها قد جعلت لتكون ميداناً للحرية والسعادة. وهذا الشعب الحساس الفخور قد ولد حقا للمجد والفضيلة. إيها يا وطني! لو كانت الأقدار كتبت على أن أولد في أرض غريبة نائية لما وسعني إلا أن أبتهل إلى الله على الدوام أن يهب لك الرخاء، ولفاضت عيني بالدمع كلما قرأت قصة معاركك وفضائلك، وتتبعت بكل جوارحي حركات ثورتك المجيدة في اهتمام بالغ، ولغبطت مواطنيك على حالهم، ولغبطت نوابك على حالهم. إني رجل فرنسي. إنني أحد نوابك.. إيها أيها الشعب العظيم! إنني أفديك بكل روحي ودمي فتقبل مني. سعيد من ولد في رحابك، وأسعد منه من مات في سبيل إسعادك".

القومية الجديدة والحرب

إن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوروبا في أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أي حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية. وفي غمرة هذه الفوضى زالت دول قديمة، وظهرت دول جديدة، ونشأت نزعات قومية لأول مرة من إيرلندا إلى سيبيريا

وروسيا ومن إسبانيا وإيطاليا إلى النرويج. وكانت الحروب التي قامت بها الجمهورية الفرنسية تدعو بصورة لم تعرف من قبل إلى الوحدة القومية والعمل على وحدة الشعب. ففي ٢٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢ طالب جورج جاك دانتون (١٧٥٩– ١٧٩٤) بأنه "يجب أن تكون فرنسا كلا لا يتجزأ. يجب أن تتمتع بوحدة التمثيل. إن المواطنين في مرسيليا يحبون أن يضعوا أيديهم في أيدي المواطنين في دنكرك. ولذلك فأنا أطالب بإعدام كل من تسول له نفسه القضاء على وحدة فرنسا، واقترح على المؤتمر الوطني أن يقرر وحدة التمثيل والتنفيذ كأساس للحكومة التي يراد قيامها. إن فرائض النمسويين سترتعد عندما يسمعون بنبأ هذه الوحدة المقدسة. وإني لأقسم لكن أن عدونا سيحيق به الهلاك متى تحققت هذه الوحدة". وواضح أن هذه النزعة أثمرت ثمرتها إذ هزمت جيوش الجمهورية العدو بعد أن أعيد تنظيمها من جديد. وكانت الأمة لا الملكية هي التي انتصرت في ميادين القتال. وقد حول النصر فرنسا من الولاء للملكية في سنة ١٧٨٩ إلى القومية الجمهورية في ١٧٩٣، ومن الروح السلمية التي اتسم بها عصر النور في القرن الثامن عشر إلى النزعة العدوانية التي اتسمت بها القومية الحديثة.

ولم تلبث الانتصارات الأولى أن أعقبتها هزائم زاد من خطرها اشتعال الثورات الداخلية، فأذكت في قلوب النفر القليل من الزعماء الفرنسيين جذوة العزم والتصميم على حشد كل القوى لمواصلة الحرب إلى النهاية، والقضاء على كافة مظاهر المعارضة والانقسام في الداخل. ولقد أنقذ

الإرهـاب الجمهوريـة، ولكنـه لم يعـزز في القوميـة الفرنسـية الناشـئة روح التسامح والوفاق واحترام الحرية في ظل القانون. وكان روبسبير يرى أن المواطن الحق هو الوطني الذي يتحلى بالفضيلة والإخلاص، وأن من عداه يجب قهره على أن يصبح من أبناء الوطن الأوفياء.. ونادى جان بول مارات (١٧٤٣– ١٧٩٣) بأن "فرنسا مهددة باستبداد الملوك، ومن ثم وجب أن ينظم استبداد الحرية.. واضح أنه لا يستطيع خدمة الوطن إلا رجال فضلاء حاكمون بأمرهم، يهبون حياتهم كلها لمصلحة الأمة جميعاً ويعبرون عن إرادة الشعب الحقيقية، وكل من عارض هؤلاء الزعماء يعد خائناً للأمة. يجب التضحية بكل شيء في سبيل الأمة. ويجب أن تعبأ الأمة بأسرها وأن تؤمم الحرب بكافة مظاهرها". وأعلن دانتون في ٢ سبتمبر ١٧٩٢ "أن الوطن في خطر. وليس في وسع إنسان أن يرفض خدمته دون أن يوصم بوصمة العار والخيانة للوطن. احكموا بالإعدام على كل مواطن يأبى الزحف لملاقاة العدو أو يعارض التدابير التي تتخذها الحكومة للمحافظة على الأمن العام سواء كانت هذه المعارضة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

كانت الحروب في القرن الثامن عشر تقوم على فرق محدودة ومجهودات محدودة، ولأول مرة في التاريخ أمر المؤتمر الوطني في سنة ١٧٩٣ بتجنيد كافة الأفراد، ومصادرة كافة الأشياء في سبيل الأمة ولو نظرياً على الأقل. فتمت تعبئة الرجال والصناعات، وتم تسخير الكتاب

والفنانين، لإشعال نار الحماس في نفوس الشعب. وقد أثمرت كل هذه الجهود فصدت جيوش العدو الغازية وأنقذت الأمة الفرنسية الناشئة، وكان الجيش هو الذي أنقذ الأمة. وظل الجيش حتى بعد أن انقضت ساعة الخطر يتبوأ مكان الصدارة في أذهان الأمة إلى درجة لم تعرفها الأمم المتكلمة بالإنجليزية وخرجت الدولة القومية الفرنسية الجديدة يكلل المجد العسكري هامتها بدرجة لم تشهدها قط في عهد أعتى ملوكها بأساً. وقد خاطب أحد الشعراء في عهد الجمهورية وطنه سنة ١٧٩٧ قائلاً "إيها يا أرض المحاربين! إيهاً يا فرنسا! إيهاً يا وطني!" وقد ساعدت محبة الجيش الجنرال نابليون بونابرت (١٧٦٩– ١٨٢٣) في الاستيلاء على مقاليد الحكم.

نابليون

استعان نابليون بالقومية الفرنسية الجديدة، ولكنه هو نفسه لم يكن من دعاة القومية. وقد وضع آخر لبنة في صرح الدولة القومية المركزية ذات النظام الموحد في التشريع والديوانية، والتربية والتعليم، ولكنه فعل ذلك على طريقة الطغاة المستنيرين من رجال القرن الثامن عشر. ولم يكن يتورع عن استخدام الأماني القومية بالقدر الذي يتفق مع نظامه دون أن تكون لديه أدنى رغبة صادقة في تحقيقها. وقد شجع النزعات القومية في إيطاليا وبولندا تشجيعاً يشوبه الغموض ولكنه أخضعها لمصلحة إمبراطوريته وأسرته الزائلة. ولم يكن هدف نابليون هو الدولة القومية الكبيرة، ولكن

إحياء إمبراطورية شرلمان أو قيصر. ولم تكن أداته لتحقيق هذا الهدف هو الشعب الذي انبعث فيه شعور جديد بالوطنية، ولكن قوة الدولة. وهي أداة صنعها أمراء عصر النهضة، وهذبها الملوك أصحاب السلطة المطلقة. ولا تعزى هزيمة نابليون إلى طموحه الجارف فحسب، ولكن تعزى كذلك إلى القوة الجديدة التي أذكتها حروبه في الخارج والتي لم يفهمها هو، ألا وهي قومية الشعوب الأوروبية ولاسيما الشعب الألماني.

إن ما لم تتعلمه هذه الشعوب –الألمان والطليان والإسبان والروس– من الثورة الفرنسية (إذ أن روح ١٧٨٩ لم تمسهم) قد تعلمته هي من نابليون: القومية، لا على أساس أنها أداة لتحقيق الحرية الفردية، ولكن على أساس أنها تمجد السلطة الجماعية.

الفصل الثالث

القومية والتقاليد

كانت القومية التي نشأت في البلاد الغربية الحديثة إبان القرن الثامن عشر –عصر النور– حركة سياسية قبل كل شيء، تهدف إلى تقييد سلطة الحكومة، ونيل الحقوق الوطنية، وخلق مجتمع حر مدني رشيد يمثل الطبقة الوسطى، ويعبر عن فلسفة جون لوك. وعندما سرت القومية بعد حروب نابليون إلى بلاد أخرى –كأوروبا الوسطى والشرقية وإسبانيا وإيرلندا– حلت ببلاد أقل تقدماً من البلاد الغربية الحديثة في الآراء السياسية والأوضاع الاجتماعية. وكانت الطبقة الوسطى مجرد طبقة ضعيفة إذ كانت الأمة موزعة بين طبقة أرستقراطية من الإقطاعيين، وطبقة كادحة من الفلاحين. ولهذا كانت القومية في بادئ أمرها حركة ثقافية، وحلم العلماء والشعراء ومعقد آمالهم.

وقد تأثرت هذه القومية الناهضة بالغرب، شأنها في ذلك شأن جميع النهضات الفكرية والاجتماعية الحديثة خارج أوروبا الغربية. ومع ذلك فإن مجرد ارتباطها بالغرب جرح كبرياء الطبقة المتعلمة من الوطنيين حالما أخذت هذه الطبقة في تطوير قوميتها الخاصة، كما أدى هذا الارتباط إلى معارضة القومية "الأجنبية" ومناهضة نزعتها الحرة الرشيدة، ولذلك تطلعت القومية الجديدة إلى تراثها الماضي لتلتمس منه مبرراً لوجودها ومخالفتها للغرب، فدأبت على تمجيد تقاليدها القديمة على نقيض ما جرى بالغرب في عصر

النور. وفي حين كانت القومية الإنجليزية والأمريكية ترتبط في نشأتها بفكرة الحرية الفردية، وتمثل أمماً ذات قدم راسخة في الحياة السياسية، كانت القومية الجديدة واهنة القوى لأنها لم تكن ذات قدم راسخة في حياة اجتماعية وسياسية مماثلة، فكانت تستعيض عما تشعر به من مركب النقص بالمغالاة في الوطنية، ومن هنا بدت القومية الألمانية والروسية والهندية أشد عمقاً من القومية الغربية، وأوفر منها حظاً في مشاكلها وإمكانياتها. وقد أصبح البحث عن معنى القومية الجديدة، والتفكير في "روحها" أو "رسالتها" الوطنية، والبحث في صلتها بالغرب.. كل ذلك أصبح من خصائص القومية الجديدة.

يوهان جتفريد هيردر

كانت القومية في الغرب مبنية على الفكرة القائلة بأن المجتمع هو وليد العوامل السياسية، ولكن القومية الألمانية استعاضت عن فكرة "المواطنة" –وهي فكرة قانونية ومنطقية– بفكرة غاية في الغموض، ألا وهي فكرة "الشعب" التي كانت أصلح من فكرة المواطنة لأن تكون مادة لبدوات الخيال، ووسيلة لإثارة عواطف الجماهير. وكان من المسلم به أن الشعب تتغلغل جذوره في أعماق الماضي السحيق، وهي جذور لا تنمو في ضوء الغايات السياسية الرشيدة، وإنما تنمو في ثنايا التطور اللاشعوري البطيء للشعب الذي قال عنه روسو إنه معدن الفطرة الطيبة. وقد ابتدع هيردر (١٧٤٤– ١٨٠٣) تلميذ روسو الألماني– نظرية نفس الشعب أو

روح الشعب التي تمتد جذورها في سلسلة طويلة من التقاليد القومية منذ أقدم العصور.

وكان هيردر يرى أن المشاهد الطبيعية والأحداث التاريخية كائنات حية نامية، وتجليات ذاتية فاضت من الذات الإلهية، صور حية لا يحصى لها عدد، وسلسلة من الخلق لا نهاية لها، يجب أن يتركز فيها الاهتمام على الجزئيات لا الكليات. وكان هيردر أول من نبه إلى أن الحضارة الإنسانية إنما تحيا في مظاهرها القومية والخاصة لا في مظاهرها العامة، وأن المعاني الكلية وما تشتمل عليه من قوى خالقة لا تتمثل جزئياتها في أفراد الجنس البشري، وإنما تتمثل هذه الجزئيات في المجتمعات البشرية ذات الشخصية الجماعية. وأكد هيردر أن الناس هم قبل كل شيء أعضاء في مجتمعاتهم القومية، ولا يستطيعون أن يكونوا منتجين إلا من هذه الحيثية، وذلك عن طريق لغتهم الشعبية، وتقاليدهم الشعبية، وكان يرى أن الأغاني والآداب الشعبية، التي كان الناس يهملون أمرها إهمالاً تاماً حتى ذلك الحين، إنما هي المظاهر العظمى للروح الخالقة الطاهرة.

ولم يكن هيردر من دعاة القومية بالمعنى الحديث للكلمة، فلم يدع إلى إنشاء دولة قومية ولا إلى توحيد الأمم. ولم تكن القومية في نظره فكرة سياسية أو إحيائية (بيولوجية) ولكنها كانت فكرة روحية وأدبية. ويعد هيردر من الناحية السياسية رجلاً مستنيراً ذا نزعة إنسانية وداعياً للسلام.

وكان يمقت الروح العسكرية البروسية على الرغم من مولده في البلاد التي يحكمها ملك بروسيا كما كان يقبل الحكم الروسي عن طيب خاطر.

وقد كتب في سنة ١٧٦٩ يقول "إن الولايات التابعة لملك بروسيا لن تنعم بالسعادة إلا إذا تجزأت وتقسمت". ويصف سكانها بأنهم "ألمان جاوزوا حد الجهالة، ورعايا جاوزوا حد الخضوع والطاعة". ولم يكن يحابي الألمان بأي وجه من الوجوه، بل كان يرى أن كل أمة إنما هي مجلى من مجالي الذات الإلهية، وهي بهذه المثابة تعد أمراً مقدساً يجب الإبقاء لا القضاء عليه. وكان هيردر كذلك يحترم جميع اللغات القومية، ويرى أن الإنسان لا تقوم له قائمة إلا إذا فكر وأنتج بلغته القومية، وهو أول من زعم أن اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه القومية وما يترتب عليها من حقوق، وأن أولى اللغات بهذا الوصف لغات الفلاحين في ذلك الحين التي كان يظن أنه لا مستقبل لها ولا كرامة.

وكان هيردر يؤمن إيماناً عميقاً أن القومية الحقة تعزز قضية السلام، فقد كتب يقول إن الأمراء والدول قد تفكر في الحرب والسياسة والسلطان، أما الأمم والأوطان فلا يسعها أن تفكر إلا في التعايش السلمي بين البشر "إنها لا تخضب يدها بالدماء أبداً، وحتى لو اضطرت إلى سفك الدماء، فإنما تفعل ذلك كما لو كانت هذه الدماء دماءها".

وكان يؤمن أن الشروط الأساسية للحياة الشعبية المتحضرة الطيبة إنما تتوافر بين الشعوب الصقلبية المسالمة المشتغلة بالزراعة أكثر مما تتوافر

بين الأمة الألمانية المتغطرسة النزاعة للحروب. وقد تكهن هيردر بمستقبل مجيد للصقالبة، وكان عطفه على الشعوب الصقلبية ولغاتها وآدابها الشعبية حافزاً قوياً لإيقاظ الوعي القومي بين شباب المفكرين من الصقالبة في مستهل القرن التاسع عشر. ومن الأمور التي أثرت تأثيراً عميقاً في التفكير القومي في أوروبا الوسطى والشرقية، تأكيد هيردر للفردية القومية الثقافية وحقوقها، وتقديره العظيم للتقاليد الشعبية والآداب الشعبية.

حروب التحرير القومي

كانت الحياة الفكرية خلال القرن الثامن عشر متأثرة في ألمانيا وإيطاليا وروسيا وفي أوروبا كلها، بآراء الفلاسفة الفرنسيين في عصر النور، فكانت آراؤهم العامة والعقلية تلقي قبولاً عاماً كما كانت اللغة الفرنسية هي اللغة العامة السائدة في أوساط المفكرين الأوروبيين. ولكن القومية التي جاءت بها الثورة الفرنسية وحروب نابليون غيرت هذا كله. ذلك أن الانتصارات الفرنسية والسيطرة الفرنسية لم تؤد إلى بعث الرغبة في خلق دول قومية على النمط الفرنسي فحسب، بل وجهت الاهتمام إلى الأفكار الفرنسية كذلك، ولم تسر هذه الروح القومية الجديدة في الشعب، ولكنها ظلت محصورة في دائرة المفكرين بل في طائفة منهم فقط، وكان الكثيرون لا يرون في نابليون الفاتح الممقوت، بل يرون فيه الشخصية الكبيرة والمصلح العظيم كما كانوا يمتدحونه في خطبهم وقصائدهم. ولكن طول أمد الحرب والاهتمام بالقومية الفرنسية أديا إلى ازدياد قوة الشعور القومي حتى وصل

هذا الشعور إلى ذروته الأولى في "الحرب الوطنية الكبرى" الروسية سنة ١٨١٢ التي بعثت في نفوس الروس روح العزة والكرامة بما أحرزوه من نصر على نابليون، وفي "حرب التحرير" الألمانية التي أدت في أكتوبر سنة ١٨١٣ إلى معركة الأمم في ليبزج، كما أدت في العام التالي إلى دخول الجيوش الروسية والنمساوية في باريس.

وقد ساعد نابليون بطريقة مباشرة على ظهور الحركة القومية في إيطاليا وألمانيا، وذلك بإلغائه الكثير من آثار القرون الوسطى، ووضع أسس الحكومة الحديثة، فكان أول من أنشأ في إيطاليا مملكة إيطالية. وقد نصب جوشيم مورات المرشال الفرنسي (١٧٦٧- ١٨١٥) نفسه بطلا للوحدة الإيطالية بعد أفول نجم نابليون الذي كان قد عينه ملكا على نابلي. ولكن التأييد الشعبي للقضية القومية كان ضعيفاً، فظلت الوطنية مقصورة مؤقتاً على الشعراء والكتاب، وكان أشهرهم فيتوريو الفييري (١٧٤٩- ١٨٠٣) الذي هاجم الفرنسيين بشدة في كتابه "عدو الغال" لتجرئهم على تزعم الشعوب في الحضارة والحرية في حين أن لواء الزعامة حق طبيعي وتاريخي للإيطاليين. وقد أهاب أوجو فسكولو (١٧٧٨- ١٨٢٧) في قصيدة "الأضرحة" بصناديد إيطاليا الماضيين الذين غيبهم الردي بين أطباق الثرى أن يهبوا من الأجداث لخوض معركة الوطن من جديد. وعندما عاد النمساويون في سنة ١٨١٤ إلى إيطاليا نفوا فسكولو

بوصفه وطنياً صميماً إلى سويسرا ثم إلى إنجلترا، وهو نفس الطريق الذي كتب لزميله الوطني الصغير مازيني أن يسلكه بعد عشرين عاماً.

وكان نقولا كرامزين (١٧٦٥– ١٨٢٦) المؤرخ والكاتب الروسي من أمثلة من تحولوا عن النزعة العالمية الحرة ومشايعة فرنسا، إلى النزعة القومية المعارضة لفرنسا والمتطلعة إلى التقاليد القومية الماضية. وكان نقولا في شبابه من أنصار فرنسا المتحمسين، ثم ألف فيما بعد كتابه "تاريخ الدولة الروسية" الذي أحرز شهرة واسعة، وأثار بين الروس روح الاعتزاز بالنظم الروسية القديمة التي كان نقولا يمجدها. وكان مما كتبه قوله "إن وجود كل فرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوطن، وإن العاطفة النبيلة التي تربطنا بالوطن لهي جزء من محبتنا لأنفسنا.

إن تاريخ العالم يجلو جمال العالم أمام أبصارنا، أما تاريخ روسيا فيجلو لنا جمال الوطن الذي هو سر حياتنا، ومهوي أفئدتنا". وكتب كرامزين في سنة ١٩١٢ متمنياً أن يؤمن معاصروه من الروس كما كان يؤمن أسلافهم بأن الروسي الأرثوذكسي هو أكمل مواطن على وجه الأرض، وأن روسيا المقدسة هي أسمى دولة. وكان نابليون يعد نفسه وريث شرلمان وقيصر، أما الروس فكانوا أثناء كفاحهم ضد نابليون يعدون عاهلهم الوريث الشرعي لأباطرة القسطنطينية الرومانيين، وللإمبراطورية الرومانية المسيحية التي كانت روسيا المقدسة هي الوريث المسيحي الحقيقي لها. وكان نابليون في

سنة ١٨١٢ يمثل في نظر الشعب الروسي المسيح الدجال الذي يقود جحافل الغربيين الزائغين ضد موسكو، معقل الإيمان الحق.

الحركة الابتداعية (الرومانسية) الألمانية

لقد تجلت الصلة بين القومية والتقاليد بأقوى مظاهرها في الحركة الابتداعية الألمانية. وكانت هذه الحركة بوصفها ثورة فنية حركة أوروبية تعتمد على الخيال الذي أبدع من الشعر ما هو أعمق عاطفة، وأخلب للألباب مما أنتجته قرائح الشعراء في القرن الثامن عشر ولكن الحركة الابتداعية الألمانية كانت تفتقر إلى العبقرية المبدعة، وأرادت أن تتجاوز نطاق الشعر، فتناولت تفسير التاريخ والمجتمع والحياة الإنسانية بكافة مظاهرها، واستعانت في هذا التفسير بكل ما ينطوي عليه الماضي من سحر وجاذبية، وذلك لمناهضة المبادئ التي نادت بها ثورة ١٧٨٩. وقد بدأ الابتداعيون الألمان حياتهم بالتطرف في مشايعة النزعة الفردية، ولكنهم انقلبوا إلى الضد، فصبت نفوسهم إلى إيجاد مجتمع حقيقي يسوده الوفاق، مجتمع شعبي يتسم بطابع الانسجام، ويغمر الفرد في بحر خضم من تقاليد الماضي. وكان يبدو للابتداعيين أن مثل هذا المجتمع الشعبي المثالي قد وجد في العصور الوسطى بألمانيا، فتغنوا بقصص الأبطال والأشعار والأغاني الشعبية والقصص الخيالية المعروفة في القرون الوسطى، وقاموا على نشرها. واستهوت قلاع العصور الوسطى أخيلتهم، فذكرتهم بما كان يشتمل عليه ماضي أمتهم من روعة وجلال، بل لقد أصبحت الطبيعة عنصراً من

عناصر القومية، غابات ألمانيا، وأنهار ألمانيا ولاسيما نهر الرين الذي أثار إعجاب فردريك شلجل (١٧٧٢- ١٨٢٩) باعتباره "الصورة الصادقة الأمينة لوطننا وتاريخنا وأخلاقنا".

وكان عصر النور يمتاز بروح التفاؤل بالمستقبل، ويصوره بصورة المثل الأعلى، أما الابتداعيون فعارضوا هذا الاتجاه وصوروا ماضي قومهم بصورة المثل الأعلى. وقد أعجب آدم ميلر (١٧٧٩- ١٨٢٩) -الفيلسوف السياسي الألماني الابتداعي- بإدموند بيرك، وزعم أن ذلك الفيلسوف البريطاني الذي عاش في القرن الثامن عشر هو أقرب إلى الألمان منه إلى البريطانيين الذين لم يفهموه فهماً تاماً كما قال ميلر. ولكن الابتداعيين الألمان لم يكونوا يتحلون بشيء من حكمة بيرك العملية، ولا باحترامه للحرية الفردية، والحقوق الدستورية. ولم تكن الدولة القومية أو الدولة الشعبية في نظرهم هيئة اجتماعية تقوم على القانون الإنساني، وتهدف إلى تأكيد حرية الإنسان وأمنه وسعادته. لكنها كانت شخصية عضوية، ومخلوقاً إلهياً كالفرد نفسه، غاية الأمر أنها تفوق الفرد عظماً وقوة إلى ما لا نهاية له، كما أنها هي منبع الحياة الفردية بأسرها. وكان فردريك هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١) من أصحاب مذهب العقل لا الابتداع، ومع ذلك فإن رأيه في الدولة يشبه رأي الابتداعيين، فكان يرى أن الدولة هي الفكرة الإلهية على وجه الأرض.

القومية الألمانية الأولى

لقد أثرت الحركة الابتداعية في طابع القومية الألمانية الناشئة خلال الحروب التي نشبت قبل ظهور نابليون. وكان أكابر المفكرين الألمان لهذا العهد يعارضون القومية، فكان الفيلسوف عمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) يمثل النزعات الحرة والفردية والعالمية التي اتسم بها عصر النور.

ولم يتجه الشاعران الألمانيان العظيمان يوهان فون جوته (١٧٤٩-١٨٣٢) وفردريك شلر (١٧٥٩- ١٨٠٥) إلى المجتمع الشعبي في العصور الوسطى، ولكنهما اتجها إلى النزعة الفردية التي امتاز بها الإغريق القدامى بوصفها مصدراً لإحياء ألمانيا. وكان جوته يعرب عن إعجابه العميق بفرنسا وبالحضارة الفرنسية طيلة حياته، بل أيام الحروب التي نشبت ضد نابليون. وقد حدث جوته العجوز سكرتيره اكرامان قائلاً: "لا غناء لنا في العصور الألمانية القديمة المظلمة كما لا غناء لنا في الأغاني الشعبية الصربية، وغيرها من الأشعار الشعبية البدائية. إن الإنسان ينشد هذه الأشعار بالطبع، ولكنه لا يلبث أن ينبذها جانباً. كفي ما يحيق بالبشرية الآن من غياهب الظلمات بسبب ما تعانيه من ضروب الآلام والدمار، فلا حاجة بها إلى مزيد من الظلام، وذلك بالتفكير في آثار العصور البدائية والبربرية المظلمة. إن البشرية في حاجة إلى الصفاء والسلام، إلا الاتجاه لعصور الفن والأدب التي حقق فيها العباقرة حضارة

كاملة ثم استطاعوا بفضل ما ساد بينهم من سلام أن يفيضوا على غيرهم من بركات هذه الحضارة".

وقد رأى جوته في نابليون ظاهرة إنسانية عظيمة تتجسم فيها روح التطور التاريخي على نحو يسمو على الحدود القومية والجنسية. وكان معاصره يوهان فشته (١٧٦٢– ١٨١٤) الفيلسوف الألماني يرى في دولة بروسيا معقل الحضارة والحرية المنظمة. وحينما هزم نابليون بروسيا سنة ١٨٠٦ دعا فشته الألمان في الخطب التي ألقاها على الأمة الألمانية في شتاء ١٨٠٧– ١٨٠٨ إلى تولي زعامة العالم الثقافية، لا إلى إحياء القومية فحسب. وكان يرى أن الأقدار رشحت الألمان وحدهم لهذه الزعامة بفضل لغتهم وعقلهم وتاريخهم. فالألمان دون غيرهم من الشعوب الأوروبية المتحضرة لهم لغة أصيلة على عكس الفرنسيين والإنجليز والإسبان والطليان الذين جنوا على حياتهم العقلية باتخاذهم لغة منتحلة أو مشتقة على الرغم من انتمائهم إلى الأصل الجرماني بصفة جزئية على الأقل.

وكان فشته يؤمن أن الألمان دون غيرهم من الأمم الحديثة لديهم الاستعداد لبلوغ ذروة الكمال، وذلك يجب عليهم أن يقاوموا نابليون كما قاوم أسلافهم الرومان. وإذا قضى على الألمان أن يستسلموا للفرنسيين كان في ذلك القضاء على أسمى ما تصبو إليه الإنسانية والحضارة من أماني وآمال.

ومن الذين ساروا على هذا النهج إرنست موترتز إرندت (١٧٦٩– ١٨٦٠) الذي ذهب إلى أن الألمان يتفوقون على سائر الأمم الأخرى

بالمحافظة على سلامة عنصرهم ولغتهم. وكان هيردر يؤمن بالمساواة في الحقوق بين كافة اللغات القومية، أما القوميون الألمان الجدد فقد نادوا بتفوق لغتهم على اللغات اللاتينية والصقلبية. وفي الوقت نفسه زعم إرندت أن اللغة هي العامل الأساسي في تكوين الأمة، ومن ثم وجب على جميع الشعوب المتكلمة باللغة الألمانية أن تنضوي تحت لواء وطن واحد. وكان إرندت من أكبر المحرضين على قيام الألمان بثورة قومية ضد الفرنسيين. وممن يضارعه في الأهمية فردريك يان (١٧٧٨– ١٨٥٢) الشهير باسم الأب يان وهو مؤلف كتاب "الشعبية الألمانية" سنة ١٨١٠ الذي مجد فيه ما يمتاز به الشعب الألماني من روح الابتكار، والقدرة على الخلق والإبداع التي منحها الله إياه. وكان ليان تأثير عظيم في حركات ثلاث ظلت من خصائص القومية في أوروبا الوسطى والشرقية بل لقد سرت إلى آسيا فيما بعد ألا وهي: التشكيلات العسكرية الحرة المؤلفة من المتطوعين الوطنيين، والجماعات الرياضية لتدريب المحاربين الوطنيين، واتحادات الطلبة المشبعة بروح الحماسة القومية. وكانت كل هذه الهيئات الثلاثة تفيض بروح الثورة، وتستجيب للدعوات التي تلتهب بنار العاطفة وتهيب بالفرد أن يهب حياته لخدمة وطنه، والدفاع عن "الحرية" التي كانوا يرون فيها رأياً غريباً يختلف عما يراه الغربيون في الحرية الفردية.

وقد اشتركت جيوش روسيا وبروسيا والنمسا في الحرب التي قامت ضد نابليون سنة ١٨١٣ ولم تكن هناك وحدة ألمانية. وكانت القوى

"الألمانية" الوحيدة التي اشتركت في الحرب هي التشكيلات الحرة التي يقودها أدولف ليتسو، وهي جماعة من المتطوعين يرتدون زياً موحداً أسود اللون، وكان كثير منهم من أعضاء الهيئة الرياضية المعروفة باسم "ترنر شافت" التي أسسها يان سنة ١٨١٠ في برلين. ولم تكن هذه الهيئات الرياضية تخدم في المحل الأول أغراض التربية البدنية أو المثل العليا التي تدعو إلى مراعاة أصول اللعب أو المهارة في الألعاب الرياضية أو تقبل الهزيمة بروح رياضية، بل كانت تعد نفسها لغاية قومية، وتسعى لتحقيق هذه الغاية بالوحدة المنظمة والاستعداد الحربي، وكانت جيشاً قوي البأس معداً لليوم الموعود الذي تدور فيه رحى المعركة ضد العدو. وكانت هذه الروح نفسها تحدو جمعيات الطلاب التي تأسست في جامعة يينا سنة ١٨١٥، وقد اتخذوا اللون الأحمر والأسود والذهبي رمزاً للوحدة الألمانية. وكان هدف حركات الشباب هذه هو الإعداد للوحدة والاستقلال القومي.

ولم يكن يان يمل من الإهابة بالألمان أن يصونوا عقولهم وعاداتهم وأخلاقهم عن كافة المؤثرات الأجنبية. وكان يؤمن بأن البطل الذي يستطيع أن يوحد كلمة الأمة ويجعلها قوية بما يعتمل في نفسه من التعصب والحمية سيظفر باحترام الشعب بوصفه منقذاً للشعب، وسيغفر له الشعب سيئاته، لأنه لا يمكن السماح لشيء بأن يقف في سبيل الهدف الأسمى الوحيد، ألا وهو تكوين الدولة القومية.

الفصل الرابع

القومية والثورة

إن هزيمة نابليون في سنتي ١٨١٤، ١٨١٥ لم تحقق رغبات الشباب القومي ومطامعه، فقد حرمت فرنسا من مجدها الإمبراطوري، وشعر كثيرون من الوطنيين بآلام مبرحة لانتقاص أراضيها إلى حدود سنة ١٧٩٠، ورأوا في هزيمة نابليون في "ووترلو" إذلالاً قومياً. ثم إن مؤتمر فينا لم يحقق كل ما يطمع فيه الألمان والبولنديين من المطالب القومية، ولم يحقق شيئاً من مطالب الإيطاليين. على أن ألمانيا كانت تقوم فيها حتى سنة ١٨٠٦ الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تضم شمل الأمة الألمانية، وكانت بولندا تتمتع بدولة قومية مستقلة حتى سنة ١٧٩٥، أما إيطاليا فلم تقم فيها مثل هذه الدولة قط. وقد تقرر في سنة ١٨١٥ ضم الولايات الألمانية المختلفة في اتحاد واهي العرى أطلق عليه اسم الاتحاد الألماني، كما تقرر تكوين مملكة تضم الشطر الأكبر من بولندا وتتمتع بالحكم الذاتي، والحقوق الوطنية الخاصة، داخل نطاق الإمبراطورية الروسية، وتقرر ضم الأراضي المنخفضة النمساوية السابقة (البلجيك) إلى هولندا، وتكوين مملكة منهما باسم الأراضي المنخفضة، وضم النرويج إلى السويد، ولكن في ظل دستورها القومي، وكانت النرويج جزءاً من الدنمارك حتى ذلك الحين.

على أن التسوية الإقليمية التي تمت في سنة ١٨١٥ لم تعترف على وجه العموم بالأماني القومية الجديدة، فقد كان الساسة الذين اجتمعوا في

فينا سنة ١٨١٥ لوضع معاهدة الصلح يعنون قبل كل شيء بإقرار دعائم السلام والنظام بعد حروب دامت ربع قرن دون انقطاع. وكان الحلف المقدس الذي تم بين الملوك بزعامة إمبراطور الروسيا والنمسا وملك بروسيا -وهم الأقطاب المنتصرون على نابليون- يهدف إلى إقرار قواعد السلام في أوروبا بمراعاة الأخلاق المسيحية والتضامن الأخوي بين الملوك.

ولم تكن الشعوب على وجه العموم تشعر بالسخط على عودة الأوضاع القديمة بعد الاضطراب العنيف الذي دام عدة سنوات. ولكن شباب البلاد ومفكريها حفزتهم الآمال التي أثارتها المبادئ الجديدة للثورة الفرنسية، والجرأة التي اتصف بها نابليون، والحماسة العاطفية التي أثارتها الحركة الابتداعية، فكانوا يشعرون بالسخط لما امتازت به الفترة التي عادت فيها الأوضاع القديمة من هدوء وركود يدلان على الجبن والخنوع، وهي الفترة التي ابتدأت بمؤتمر فينا، وكان زمرها الممقوت الحلف المقدس ونصيره الأمير مترنيخ، مستشار النمسا. وقد توثقت أواصر الألفة بين الوطنيين من جمع الأمم -كما كانوا يسمون أنفسهم- على نحو ما فعلوا في بداية الثورة الفرنسية، وذلك بجامع العداوة المشتركة بينهم ضد الملوك والحلف المقدس، ودفعهم شعورهم القومي إلى المناداة بتضامن الشعوب ضد الملوك، والمطالبة بدساتير حرة للحد من سلطة الحكام المطلقة، وإعلان حلف مقدس من الشعوب ضد حلف الملوك المقدس. وكان الوطنيون في أي شعب يظهرون عطفهم كلما وحيثما انتفض الوطنيون في

الشعوب الأخرى على النظام الذي أقامه مؤتمر فينا. ولجأ الوطنيون إلى تكوين الجمعيات السرية وتدبير المؤامرات والثورات، لتحقيق أهدافهم في وقت لا يكاد يوجد فيه رأي عام حر، أو حياة سياسية دستورية، في أوروبا باستثناء بريطانيا.

ومما ساعد على نمو الروح القومية الجديدة بين الطبقات المتعلمة ذلك التقدم العظيم الذي طرأ على البحث التاريخي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. فقد أخذ العلماء في كل مكان يجمعون الوثائق التاريخية الماضية ويعدونها للنشر، كما أخذت الشعوب تبدى اهتماماً جديداً بتاريخها الماضي، وتلتمس منه أسباباً جديدة للعزة والفخار. ففي ألمانيا شجع الوطني الكبير البارون كارل شتاين (١٧٥٧- ١٨٣١) على نشر "الآثار الألمانية التاريخية" وهي مصادر التاريخ الألماني في العصور الوسطى، وكان كل مجلد من المجلدات المنشورة يحمل عبارة "أن محبة الوطن المقدسة تحدونا". وتم نشر كتب من هذا القبيل بين الأمم الأخرى.

وظهر مؤرخون في الأمم التي فقدت دولتها السياسية أمثال فرانتسيك بلاكي (١٧٩٨- ١٨٧٦) التشيكي الذي أضفى معنى جديداً على ذكريات الماضي البائدة، وزادها تألقاً وبهاء. وكان هذا الافتتان بالماضي من أكبر الأسباب التي ساعدت على نجاح أول ثورة قومية -ألا وهي ثورة بلاد اليونان سنة ١٨٢١ التي لقيت عطفاً عاماً من الشعوب الأوروبية. أليس اليونانيون هم أبناء هومر، وبراكسيتيليس واسخيلوس،

وسقراط، وأفلاطون، وديمستينيس؟ أليس استقلال بلاد اليونان معناه إحياء الأمجاد القومية جميعاً؟ إن الآمال العظيمة التي أثرتها حرب الاستقلال اليونانية لهي مثل لتلك الصلة الغربية التي تربط بين التاريخ والقومية، وتؤمن بخرافة وحدة الدم بل وتؤمن أيضاً بهذا الأمر الغريب ألا وهو بقاء العبقرية القومية خلال كثير من القرون.

مازيني

بلغت الاضطرابات القومية ذروتها الأولى في يوليه سنة ١٨٣٠ حينما تم القضاء على أسرة البوربون في باريس، واعتلى لويس فيليب عرش فرنسا بوصفه الملك المواطن، وقد اقتدت إيطاليا وألمانيا وبولندا بفرنسا، فشبت فيها ثورات قصيرة الأمد، باءت بالفشل الذريع لأنها لم تلق تأييداً من الشعب في أي مكان. ولم تنجح الثورة إلا في بلجيكا. ففي ٢٥ أغسطس ١٨٣٠ شهد الطلبة في بروسل –عاصمة البلجيك– المسرحية الموسيقية "صماء بورتتشي" لأوبير، وكانت مسرحية مشهورة في ذلك الحين، وتتضمن تمجيداً لثورة شعب نابولي سنة ١٦٤٧ ضد حكم الإسبان وقد ثار الطلبة عند سماعهم اللحن الثنائي "محبة الوطن المقدسة" فقاموا في مظاهرة أدت –بعد عدة تطورات– إلى اعتراف الدول الأوروبية باستقلال البلجيك في ١٤ أكتوبر ١٨٣١ وقد نجحت ثورة ١٨٣٠ في أوروبا الغربية بوجه عام، فأدت إلى وضع دساتير حرة في فرنسا والبلجيك وبريطانيا وإلى تولي الطبقة المتوسطة مقاليد الحكم، كما دفعت عجلة

التطور التاريخي الذي بدأ في سنتي ١٦٨٨، ١٧٨٩ في طريق التقدم. بيد أن النظام القديم ظل قائماً لا يتزعزع في أوروبا الوسطى والشرقية سنة ١٨٣٠ فتم على وجه السرعة إطفاء الثورات التي اشتعل لهيبها، وتدفق سيل المهاجرين من إيطاليا وبولندا وألمانيا على سويسرا وإنجلترا، وكان من بينهم يوسف مازيني (١٨٠٥– ١٨٧٢).

كانت آراء مازيني تمثل الآراء السائدة عن القومية في ذلك العصر. وكان مازيني شاباً تغذى بلبان القومية الصحيحة، ورسولا يدعو إليها نظراً وعملا دون أن يكل أو يمل. وقد رأى مازيني ما أصيب به الشعب من فتور الهمة؛ وما اتسمت به الطبقات المتوسطة من خور العزيمة، فدعا إلى قيادة إيطاليا الفتاة قيادة تتصف بالهمة والنشاط وكتب يقول "أن سر النهوض بالجماهير يتركز في أيدي الذين يبدون الاستعداد لقيادتهم في ميدان القتال والنصر". وأهاب بالشباب والشعب أن يضحي بالنفس والنفيس في سبيل تكوين أمة قوية مركزية متحدة. ولقد ذهب مازيني في إيمانه بالقومية إلى حد القول بأن الفن الحقيقي لا يمكن أن يزدهر إلا في مثل هذه الأمة، وغاب عنه أن الفن قد أزدهر في إيطاليا إلى حد الكمال في أواخر القرون الوسطى، وفي عصر النهضة، حين لم تكن هناك بلاد إيطالية، وأن هذا الفن كان مصدر إلهام للجنس البشري في وقت لم يكن يهدف فيه إلى إيقاظ الشعور القومي. ولكن مازيني تنكب جادة الصواب

في استقراء التاريخ في غمرة حماسته لدعوته القومية، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من دعاة القومية.

وقد أخطأ مازيني أيضاً في استقراء التاريخ حين فخم من شأن الثورة الإيطالية، وأراد لها أن تقود العالم إلى أبعد مما ذهبت إليه الثورة الفرنسية التي كان مازيني يعدها ثورة سلبية، ويرى أنها أقامت دعائم الحرية، وقوضت أركان العالم القديم، وأنه لابد أن يقوم على أنقاض هذا العالم إيمان جديد يملأ الفراغ الذي تركته الثورة الفرنسية. وذهب مازيني إلى أن الإيطاليين هم أقدر من غيرهم على الإتيان برسالة إيجابية في العصر الجديد، وتحقيق الوحدة التي سبق أن حققتها روما للجنس البشري مرتين: في عصر القياصرة وفي عصر البابوات. وفي وسع روما الثالثة التي تفوق سابقتها أن تحقق لأوروبا وحدة وقيادة أسمى مقاماً مما حققته في أي وقت مضى في العصور القديمة أو الوسطى. كتب مازيني في سنة ١٨٥٨ يقول "اليوم تطالع بلادنا إيطاليا رسالة ثالثة أوسع نطاقاً من الرسالات القديمة، كما أن شعبنا الإيطالي وبلادنا الحرة المتحدة سيكونان أعظم وأقوى من القياصرة والبابوات.

أوروبا الفتاة

أسس مازيني جمعية إيطاليا الفتاة في سنة ١٨٣١، وسعى لتكوين جمعيات مماثلة بين المهاجرين الألمان والبولنديين حينما كان يعيش في سويسرا مهاجراً. وأراد مازيني أن يؤلف من هذه الجمعيات جمعية واحدة

باسم أوروبا الفتاة. ولم تصل هذه الهيئات الثورية السرية إلى حد التحريض الفعلي على الثورة، ولكن مازيني صاغ كلمة جديدة وابتكر فكرة جديدة تردد صداها في سائر الحركات القومية في القرن التاسع عشر حتى امتد إلى تركيا الفتاة، والصين الفتاة. وكان مازيني يؤمن بضرورة تعزيز أواصر الإخاء والألفة بين جميع الحركات القومية الفنية. وكانت الفترة التي امتدت بين سنتي ١٨٣٠، ١٨٤٨ حافلة بالآمال المثيرة ودواعي التفاؤل الكثيرة. ونحا مازيني نحو روسو وهيردر في الإيمان بصلاح الشعب وفساد الحكومات والدول.

وشاركه في هذا الإيمان المؤرخ الفرنسي جول ميشيليه (١٧٩٨– ١٨٧٤) الذي ألف كتاباً في سنة ١٨٤٦ باسم الشعب يعرب فيه عن المشاعر السائدة في ذلك العهد، وهي الشعور بالوطنية التي تنطوي على البطولة، وترقب ساعة الخلاص. وآمن ميشيليه كما أمن مازيني أن الشعب هو عنوان القومية وأن القوميات المختلفة متى تحررت من رق الحكومات، كونت اتحاداً أوروبياً ميالاً للسلام. وكان ميشيليه من أصدقاء ومؤيدي الشاعر البولندي آدم ميكيوكز (١٧٩٨– ١٨٨٥) الذي كان يقيم في باريس في ذلك الحين مهاجراً. وقد صار هذا الشاعر العظيم من زعماء القومية البولندية بعد إخفاق ثورة سنة ١٨٣١ التي لم يشترك فيها، وكان هو وزملاؤه الشعراء المهاجرون يترقبون ساعة الخلاص، فظلت قلوبهم عامرة بالثقة والإيمان بالشعب البولندي في غمرة الخذلان واليأس. وكان

الشهداء البولنديون يضحون بأنفسهم يحدوهم الإيمان بأن ساعة الخلاص آتية لا ريب فيها. وأعلنوا أن مثل بولندا في الأمم كمثل المسيح، فإذا كانت قد صلبت دون ما ذنب جنته، فإنها ستعود إلى الحياة مرة أخرى، ويكون تحريرها معناه تحرير الجنس البشري كله من ويلات الظلم والحرب.

وكان ميكيوكز، ومازيني، وميشيليه من دعاة القومية والديمقراطية، شأنهم في ذلك شأن رجال أوروبا الفتاة، وقد أدركوا أن يقظة القومية تتوقف على مشاركة الشعب في ذلك مشاركة فعالة. وكانت الدعوة الموجهة إلى الطبقات العاملة في البلاد الصناعية بأوروبا تصطبغ في ذلك الحين بصبغة القومية، وتهدف إلى إثارة النعرة الوطنية، وتنادي بشعار الباريسيين في سنتي ١٧٩٢- ١٧٩٣، وكانت المشكلة التي تواجه الوطنيين في أوروبا الوسطى والشرقية هي تحرير الفلاحين. ويرجع السبب الأكبر في خذلان القضية القومية في بولندا إلى فتور الفلاحين وعدم ثقتهم في النبلاء وقد طالب الديمقراطيون البولنديون وفي طليعتهم المؤرخ جوشيم ليليويل (١٧٨٦- ١٨٦١) بتوجيه مزيد من العناية إلى تعليم الشعب، وتحقيق المساواة بين الطبقات. ولكن ليليويل لم يتح له أن يؤثر في تطور الأحوال في وطنه لأنه قضى الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في المنفى، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء جلدته، وكان ليليويل أستاذاً لميكيوكز في جامعة فيلنا. وممن صادف حظاً أوفر من النجاح نقولا فردريك جرندفيك (١٧٨٣- ١٨٧٢) وهو شاعر وقسيس دانماركي، ووطني متحمس، أنشأ

مدارس شعبية راقية في أوساط الفلاحين الدانماركيين. وجعل الشعر والتاريخ عنصراً أساسياً في التعليم.

وعلى هذا النحو حلت مشكلة الفلاحين في إيرلندا إبان القرن التاسع عشر، فمن الناحية السياسية تم تحرير الناخبين الكاثوليك في بريطانيا العظمى وإيرلندا سنة ١٨٢٩، ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية صدرت قوانين إصلاح الأراضي في عهد الحكومات المتعاقبة، وأولهما قانون الأراضي الايرلندية في عهد غلادستون. ولكن أماني الايرلنديين لم تقف عند هذا الحد، فقامت ثورة بقيادة دانيل أكونيل (١٧٧٥- ١٨٤٧) تنادي بإلغاء الاتحاد الذي تم بين بريطانيا وإيرلندا سنة ١٨٠٠ وإعادة البرلمان الايرلندي ونادت إيرلندا الفتاة بدعوة أهم من ذلك أدت في سنة ١٨٤٢ إلى تأسيس صحيفة أسبوعية في ديلن باسم "الأمة". وتجاوزت إيرلندا الفتاة النطاق الكاثوليكي الذي انحصرت فيه دعوة أكونيل، فصارت تشمل جميع سكان إيرلندا من كاثوليك وبروتستنت، وكلتيين، ونورمانديين، وسكسونيين. على أنها في الوقت نفسه مجدت من تاريخ إيرلندا القديم الذي كان في العصور الوسطى مركز إشعاع العلم والمسيحية في سائر أنحاء أوروبا. وكان من بين من مدحهم توماس أسبورن دافيس البروتستنتي (١٨١٤- ١٨٤٥) في قصائده، وهو أعظم شعراء إيرلندا الفتاة، الملك داثي، آخر ملك وثني في إيرلندا وصلت فتوحه إلى قارة أوروبا، وامتدت غزواته إلى الإمبراطورية الرومانية.

وقد سرت موجة الاضطرابات الثورية التي حفلت بها هذه الفترة إلى أمريكا الإسبانية أيضاً. فتأثر الأهالي الكريوليون بالثورتين الأمريكية والفرنسية، وهم أمريكان منحدرون من أصل إسباني. وكانوا يشعرون بأنهم يعاملون معاملة ثانوية بالنسبة للإسبان الذين نزحوا من وطنهم القديم ليتقلدوا كافة المناصب الهامة، فثاروا بقيادة سيمون بوليفار (١٧٨٣- ١٨٣٠) وأهل فنزويلا، وجوسيه دي سان مارتين (١٧٧٨- ١٨٥٠) من أهل الأرجنتين وحاربوا في سبيل استقلال المستعمرات الإسبانية. ولم تأت سنة ١٨٢٣ حتى أفل نجم الحكم الإسباني. ولكن الأمور تطورت على خلاف ما جرى عليه الحال في أمريكا الإنجليزية. ذلك أن إسبانيا لم تتح لرعاياها الأمريكان فرصة كبيرة للتدريب على الحكم الذاتي والديمقراطية كما لم تتح ذلك لرعاياها في الوطن. فلم يستطع الأمريكيون الأيبريون أن ينفضوا عنهم غبار التأخر الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر كما لم يستطع الإسبان ذلك ولم تستطع أمريكا الإسبانية أن تطبق مبادئ الديمقراطية والاتحاد التي طبقتها أمريكا الإنجليزية في الولايات المتحدة وكندا، شأنها في ذلك شأن إسبانيا نفسها. وبذلك تعاقبت الفوضى والدكتاتورية على معظم الجمهوريات الأمريكية الإسبانية، فكان القواد العسكريون المعروفين باسم "كوديلوس" يتنزعون أزمة الحكم ويستولون على مقاليد السلطة. وكانت مستعمرة البرازيل البرتغالية السابقة هي البلاد الوحيدة التي ساد فيها النظام زمناً طويلاً وذلك في عهد الملك بدرو الثاني (١٨٤٠- ١٨٨٩) وقد ظل الأهالي الوطنيون الهنود بمعزلي

عن الأمم الجديدة في معظم الأحوال، ولم تبذل الجهود إلا في القرن العشرين –وبخاصة في المكسيك– لجمع شملهم في نطاق أمة واحدة، وإحياء ثقافتهم الشعبية القديمة، ودراسة تاريخهم وتقاليدهم، وتوحيد الحضارتين الأمريكية والإسبانية.

الحركات القومية في أوروبا الوسطى والشرقية

كانت أوروبا الوسطى والشرقية تخضع في سنة ١٨١٥ لحكم الملوك الثلاثة الذين يجمعهم الحلف المقدس ولحكم الأتراك العثمانيين. فكان الروس والألمان والأتراك هم الأمم الثلاثة المسيطرة على سائر الأقاليم الشاسعة التي تسكنها أجناس متعددة ومتباينة، ولم تكن هذه الأجناس تشترك في شيء اللهم في افتقارها إلى دولة قومية، وكانت جماعات متفرقة تختلف جنساً ولغة وديناً. وكان الصقالبة أكبر جماعة لغوية في هذه الجماعات، ولا يتمتع بالاستقلال بين الصقالبة سوى الروس. وكان الروس يدينون بالمذهب الأرثوذكسي كما كان الصرب والبلغار يدينون به وهم الذين كانوا يعيشون تحت ظل الحكم التركي في شبه جزيرة البلقان.

ولم تأت سنة ١٨١٥ حتى توزعت أراضي بولندا بين إمبراطور الروسيا وملك بروسيا وإمبراطور النمسا، وكان البولنديون –وهم يدينون بالكثلكة– أمة قوية في القرن الثامن عشر تشتمل على كثير من الشعوب غير البولندية من اللتوانيين، والأوكرانيين والروس البيض. وكان إمبراطور النمسا يبسط سلطانه أيضاً على التشيك الكاثوليك في بوهيميا ومورافيا

والسلوفاك في الجزء الشمالي الغربي من المجر، وعلى الكروات والسلوفين الكاثوليك كذلك الذين كانوا يستوطنون الجزء الجنوبي من إمبراطوريته ويمتون بصلة القربى والجوار إلى الصرب. وكان السواد الأعظم من الأوكرانيين الصقالبة والروس البيض يدينون بالمذهب الأرثوذكسي والقليل منهم يدينون بالمذهب الكاثوليكي، ومعظم الفريقين يخضع لحكم الروس. وكانت أوكرانيا بحكم موقعها الجغرافي مشتجر الطعان الذي يتصارع فيه الروس والبولنديون من أجل النفوذ والسلطان، وإن كان الأوكرانيون هم أكبر الشعوب الصقلبية عدداً ولا يفوقهم في ذلك سوى الروس أنفسهم.

كان الصقالبة هم السواد الأعظم من أهالي البلاد الواقعة بين ألمانيا وإيطاليا، ومع ذلك فإنهم اختلطوا في هذه البلاد بأمم أخرى، فبدت خريطة أوروبا الشرقية والوسطى مبرقشة الألوان، فعلى حدود البلطيق نجد الفنلنديين، والأستونيين، واللاتفيين، واللتوانيين الكاثوليك، وفي طول الإمبراطورية الروسية وعرضها نجد أمماً مختلفة ينحدر معظمهم من سلالة التتار أو الفنلنديين، وقد امتصت روسيا هذه الشعوب في خلال التوسع الإمبراطوري، وأن لم تندمج في جسم الأمة الروسية اندماجاً تاماً. وقد استقر المجريون الكاثوليك في السهل المجري على طول نهر الدانوب الأوسط، كما احتفظ الرومانيون الأرثوذكس إلى الشمال من وادي الدانوب الأسفل بلهجة لاتينية منذ الوقت الذي أقام فيه الرومان القدامى ولاية داشيا. واستقر اليونانيون في الشطر الجنوبي من البلقان وفي آسيا

الصغرى، وكان لمذهبهم الديني وثقافتهم شأن عظيم بين الصقالبة والرومانيين في شبه جزيرة البلقان، وهم الذين كانوا يخضعون سياسياً لحكم السلطان في القسطنطينية، ولكنهم يخضعون روحياً واجتماعياً لسلطان البطريرك اليوناني في القسطنطينية. وفضلا عن ذلك كان الألبانيون يستوطنون غرب البلقان وكان بعضهم من المسلمين، وبعضهم من الأرثوذكس وبعضهم من الكاثوليك، وأخيراً كان الأرمنيون يستوطنون آسيا الصغرى.

وقد شهد القرن الذي انقضى بين سنتي ١٨١٥، ١٩١٨ نضالاً من جانب هذه الأمم جميعاً في سبيل استقلالها القومي. ولم تأت سنة ١٩١٨ حتى فقد الروس والنمساويون والبروسيون والعثمانيون سلطانهم في هذه البلاد، ولكن قامت عقبات كأداء في كل مكان عدا شعوب البلطيق في سبيل إنشاء دول قومية مستقلة مستوفية للشروط على نسق الدول القومية في الغرب، إذ تعذر في معظم الحالات رسم حدود جنسية واضحة. على أن امتزاج الجماعات التي تختلف سلالة ولغة وديانة لم يكن هو العقبة الوحيدة في سبيل إيجاد حل تقبله كافة العناصر التي يعنيها الأمر. فقد كانت الحقوق "التاريخية" أشد خطراً على السلام من الحقوق "الطبيعية" لهذه الأمم، فكانت كل منها تطالب بالحدود التي كانت تتمتع بها في أوج توسعها التاريخي، حدود تتجاهل التطورات الجنسية والتاريخية التي طرأت على مر القرون، إذ تعاقبت على كثير من البلاد أمم في مختلفة عصور

مختلفة، فجاءت الآن كل أمة من هذه الأمم نطالب بهذه البلاد. وبذلك لم تؤد القومية كما كان مازيني ورجال أوروبا الفتاة يتوقعون، إلى تآخي الشعوب المتجاورة والسلام بين الدول. بل إن يقظة الشعوب أشغلت نار الأهواء الجماعية التي أصبحت في القرن الذي تلا سنة ١٨٤٨ أقوى عامل في إثارة كوامن الأحقاد وإذكاء جذوة الحروب.

ولعل الاتحاد الديمقراطي في إمبراطوريات تضم أجناساً متعددة كان يمكن أن يكون حلا لهذه المشكلة، ولكل كان يتطلب من جانب هذه الأمم إيثار التطور المنظم، وذلك بالتنازل عن بعض مطالبها على نحو ما فعلت الأمم المتكلمة بالإنجليزية. ولكن مثل هذا الحل لم يطبق بنجاح في القارة الأوروبية إلا في سويسرا حيث قام الاتحاد الديمقراطي، بعد حرب مدنية قصيرة في خريف سنة ١٨٤٧ فأتاح الفرصة لتطور الحرية تطوراً سلمياً بين السكان الذين يتكلمون بالألمانية والفرنسية والإيطالية، ويتمسكون بتقاليد ومذاهب مختلفة جداً. أما فيما عدا سويسرا فقد قابلت الأمم المتكلمة بالألمانية والفرنسية والإيطالية بعضها بعضاً قتالاً مريراً في خلال مائة عام، وضحت بالحرية في سبيل تحقيق المطالب القومية. وقد تكهن اللورد آكتون بخطر هذا التطور، وهو من الإنجليز الأحرار الكاثوليك من رجال القرن التاسع عشر. وكان هذا الخطر أشد ما يكون في أوروبا الوسطى والشرقية بعد النجاح الذي صادفته الثورات القومية.

وقد مهد العلماء والشعراء لهذا النجاح بما بذلوه من جهود ثقافية، فعمدوا تحت تأثير هيردر– إلى الاهتمام بكتابة الأدب باللغة القومية كما اهتموا بالبحث عن التقاليد الشعبية. وكانت الطبقات المتعلمة تستعمل اللغة الفرنسية والألمانية واللاتينية حتى بداية القرن التاسع عشر، ولكن الجيل الناشئ عمد إلى كتابة قواعد اللغة وتأليف المعاجم الخاصة بلغته الوطنية، وترجمة المؤلفات الأجنبية، وجمع الأغاني الشعبية، والبحث عن الآثار القومية، والبحث في السجلات والمحفوظات التاريخية. ولم يكونوا يفعلون ذلك حباً فيه بل لإعلاء شأن أمتهم، وإثبات مساواتها –إن لم يكن تفوقها– للأمم المجاورة لها، وللأمم الذي فازت بحظ أوفر من الرقي.

وقد بكى جان كولار (١٧٩٤– ١٨٥٢) –وهو شاعر وقسيس صقلبي– تدهور سلطان الصقالبة في مقطوعته الشعرية "بنت سلافا، ١٨٢٤" ودعا إلى وحدة جميع الشعوب الصقلبية وتكهن لها بمستقبل عظيم، وتعميرها الأرجاء الشاسعة الممتدة من نهر الألب إلى المحيط الهادي ومن البحر الشمالي إلى البحر الأبيض المتوسط. وذكر بالاكي قومه التشيك بحروب جون هوس في القرن الرابع عشر إذ كان التشيك أول من امتشق الحسام في سبيل الإصلاح الديني. وسخر كاريل هافلسيك (١٨٢١– ١٨٥٤) موهبته الصحفية والنقدية لبث الروح الديمقراطية في نفوس مواطنيه.

وقد أثارت حروب نابليون شعوراً قومياً جديداً في أوساط صقالبة الجنوب (الصرب والكروات والسلوفين) فاحتفظ بعض الصربيين –تحت زعامة أسقفهم الأرثوذكسي– باستقلالهم عن الأتراك في ذرى الجبل الأسود المنيعة، وثار آخرون منهم في سنة ١٨٠٥ ضد الأتراك في وادي مورافا، وأقاموا إمارة متمتعة بالحكم الذاتي في سنة ١٨٣٠. وكان الصرب الخاضعون لحكم الأرتاك أشد تأخراً من الناحية الثقافية من الصرب وغيرهم من صقالبة الجنوب الخاضعين لحكم آل هابسبورج.

وكان نابليون قد أدمج الكروات والسلوفين الذين ينتمون إلى صقالبة الجنوب هؤلاء في إمبراطوريته حيناً من الزمن، وأطلق على الولايات الجدية –كعادته– اسماً رومانياً قديماً هو إليريا، ومن ثم صار الشعور القومي الذي سرى بين صقالبة الجنوب يعرف باسم الشعور الليري، وكان لوديفيت جاج (١٨٠٩– ١٨٧٢) لسانهم الناطق وترجمانهم الصادق، وفوك كرادزيك (١٧٨٧– ١٨٦٤) أستاذهم الأعظم الذي كان سباقاً إلى خلق لغة أدبية مشتركة للكروات والصرب، وإلى جمع أغانيهم الشعبية. وما لبثت القومية الإليرية أن تهاوت كواكبها أمام الحركات القومية المتعارضة التي ظهرت بين الصرب، والكروات، والسلوفين، وإن ظلت هذه الشعوب الثلاثة تشعر بالصلة الوثيقة التي تربطها بصقالبة الجنوب أو اليوغوسلافيين.

وكان الرومانيون يستوطنون ولايتي الأفلاق والبغدان التركيتين المتمتعتين بالحكم الذاتي في ظل حكام أرثوذكس من أصل يوناني يعينهم

السلطان، كما كانوا يستوطنون ولاية ترانسلفانيا وهي جزء من المجر. وكان الرومانيون -أو الفلاخ كما كانون يسمون- يعيشون فيها مختلطين بالمهاجرين المجريين والألمان دون أن يتمتعوا -مع ذلك- بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها هذان الشعبان. ومع ذلك كانت ترانسلفانيا هي المنبع الذي انبثقت منه النهضة القومية والثقافية بين الرومانيين. ففي القرن الثامن عشر كان الرومانيين جميعاً يدينون بالمذهب الأرثوذكسي ويستعملون الكتابة الكرلسية أو الصقلبية القومية، ولا يكادون يشعرون بالأصل اللاتيني للغتهم. وفي سنة ١٧٠٠ انضم القسس الرومانيون إلى روما وأقاموا كنيسة رومانية موحدة وذلك في مدينة ألباجوليا بولاية ترانسلفانيا، وهي مستعمرة رومانية قديمة. وأدخل صمويل كلاين (١٧٤٥- ١٨٠٦) الحروف اللاتينية بتأثير هذه الكنيسة، ونوه بالأصل الروماني للغة الوطنية. وقد بعث هذا الأصل المزعوم في نفس الشعب الروماني شعور التفوق على المجريين والصقالبة والأتراك واليونانيين، فشعر الرومانيون بأنهم أحد المراكز المتقدمة في الشرق للحضارة اللاتينية في عهد الأباطرة. ونقل أحد الأساتذة المدعو جورجي لازار (١٧٧٩- ١٨٢٣) هذه الروح اللاتينية من ترانسلفانيا إلى الأفلاق ونجم عن ذلك أن تغلبت الروح القومية الجديدة هناك على النفوذ اليوناني، فصار الأمراء الوطنيون منذ سنة ١٨٢٢ يعينون حكاماً على البلاد من قبل الأتراك. وبذلك وضع البحث التاريخي والثقافي الذي نبع من ألباجوليا في القرن الثامن عشر أسس القومية الرومانية. وأدت هذه القومية بدورها في سنة ١٩١٨ إلى

الوحدة السياسية بين الولايتين التركيتين السابقتين وبين ترانسلفانيا في حفل أقيم في ألباجوليا.

وقد شهدت السنوات السابقة على سنة ١٨٤٨ مولد حركة قومية وأدبية في أوكرانيا. فقد كون الشاعر تاراس شيفشنكو (١٨١٤–١٨٦١) مع أصدقائه جمعية القديس كرلس والقديس ميثوديوس وذلك في كييف عاصمة أوكرانيا التاريخية التي كانت إذ ذاك جزءاً من الإمبراطورية الروسية. وقد قضت الحكومة الروسية على نشاط هذه الجمعية في سنة ١٨٤٧، فاعتقلت شيفشنكو وطوحت به في المنفى. وكانت الحركة القومية الأوكرانية التي قامت في ولاية غاليسيا النمساوية أسعد حظاً حيث أنشيء كرسي للغة الأوكرانية وآدابها في جامعة لمبرج (لفوف)، وأمكن للصحافة الأوكرانية أن تمارس نشاطها.

وفي حين كان النشاط القومي بين التشيك والكروات والرومانيين والأوكرانيين محصوراً في الغالب قبل سنة ١٨٤٨ في الحقل الثقافي، اتجه المجريون إلى تحويل مملكتهم القديمة ذات الأجناس المختلفة إلى دولة قومية مجرية. وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية للمملكة، وروعي في ذلك ما تشتمل عليه هذه المملكة من اختلاف اللغات والأجناس. وفي سنة ١٨٣٣ قرر المجلس المجري جعل اللغة المجرية هي اللغة الرسمية، وشرع في صبغ الإدارة بالصبغة المجرية فأثار ذلك استياء عميقاً بين الشعوب غير المجرية من سلوفاك وكروات وصرب ورومانيين وسار العمل بخطى حثيثة في

خلق أدب مجري حديث، وطالب القوميون المجريون -بزعامة لاجوس كوسوث (١٨٠٢- ١٨٩٤) محرر الصحيفة التقدمية "بستي هرلاب" بالإصلاحات الدستورية والتشريعات الحرة والاستقلال القومي للمجر، دون أن يدخلوا في اعتبارهم -مع ذلك- المطالب القومية المماثلة للشعوب غير المجرية. وفي الوقت الذي كان المجريون فيه يناشدون ضمير أوروبا الحرة أن يؤيدهم في المطالبة بحقوقهم الوطنية ضد سيطرة آل هابسبورج كانوا يصرون على أن يحرموا على غيرهم ما يحلونه لأنفسهم. إن تحرير المجريين معناه "ظلم" الشعوب غير المجرية الداخلة في نطاق ما يسميه المجريين بالحدود التاريخية لمملكة المجر في العصور الوسطى. ولكن الصراع لم ينشب بين الأماني القومية في حالة المجر فحسب بل إن هذا الصراع بين الأماني القومية الثورية هو الذي أدى إلى خذلان الثورات التي نشبت في وسط أوروبا سنة ١٨٤٨.

ربيع الشعوب

لقد أذن النفير مرة أخرى بالثورة سنة ١٨٤٨ من باريس حيث أعلنت الجمهورية الفرنسية الثانية في ٢٤ فبراير، فاندلعت نار الثورة في الشهر التالي في برلين وفينا وبراغ وبودابست وفي ميلان والبندقية. واستبشر أنصار القومية من الألمان والطليان والصقالبة والمجر في وسط أوروبا من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر الشمال، استبشروا بمطلع عهد جديد، وبدا لهم أن شتاء الحلف المقدس الذي طال أمده قد انقشعت

غياهبه، وأن نظام مترنخ قد انفضت مواكبه فانعقدت البرلمانات الشعبية وأصبحت كلمة الشعوب هي العليا، وكأنها قوة لا تقهر. لقد أقبل ربيع الشعوب. ولكن الآمال والبشائر التي جاء بها هذا الربيع لم تلبث أن تبددت بعد أن انكشف غطاء الوهم. فالناس قد رحبوا بثورة ١٨٤٨ باعتبارها محققة لمبادئ ثورة ١٧٨٩، واستقبلت أوروبا إعلان الجمهورية في فرنسا باعتباره تحقيقاً لآمال القرون ورسالة عامة للشعوب، وضماناً لسلان البشرية. ولكن العصر الجديد الذي طالع القارة الأوروبية في أعقاب ثورة ١٨٤٨ لم يحمل للبشرية بشائر الوفاق والإخاء ولكنه حمل في طياته نذر الشقاق والخلاف، فلم تلبث القومية أن اهتمت بالقوة الجماعية والوحدة الجماعية قبل اهتمامها بالحرية الفردية، وصار هدفها الاستقلال عن الخارج لا تحقيق الحرية في الداخل، ولم تستطع أية قومية جديدة متى أمكنتها الفرصة أن تقاوم شهوة التسلط على البلاد والسكان المتنازع عليها جنسياً. وتحولت القومية في منتصف القرن التاسع عشر من النزعة الإنسانية التي تتسم بطابع الحرية إلى الأثرة والأنانية التي تتسم بطابع العدوان، ومن الاهتمام بكرامة الفرد إلى الاهتمام بقوة الأمة، ومن الحد من سلطة الحكومة وسوء الظن بها إلى تمجيدها وإعلاء شأنها.

وفي فرنسا انهار صرح الجمهورية لا بأيدي الملكيين أو الارستقراطيين القدامى ولكن بأيدي لويس نابليون الذي ظفر بتأييد الشعب المطلق في انتخابات حرة، وقد اقترعت أغلبية الشعب في صفه لأنه احتضن قضية

القومية والتقدم الاجتماعي، وكان لويس نابليون مرشح جميع الناقمين على سياسة لويس فيليب السلمية "المضادة للقومية" والتواقين إلى رؤية مجد الجيوش الظافرة في سنة ١٧٩٣ وإلى إحياء عهد نابليون والانتقام لمعركة ووترلو ومعاهدة ١٨١٥. وكان نابليون الأول قد أعرب أثناء اعتقاله في سانت هيلانة عن فهمه وتقديره للحركات القومية. واشترك لويس نابليون أيام شبابه في الثورات القومية التي قامت في إيطاليا وبعد أن أسس الإمبراطورية الفرنسية الثانية باسم نابليون الثالث أظهر خلال حكمه أنه نصير لمبدأ الثورة القومية. ولم تكن في فرنسا نفسها مشاكل قومية تتطلب الحل في سنة ١٨٤٨ فقد كانت فرنسا أمة منذ سنة ١٧٨٩ على خلاف ما كان عليه الحال في وسط أوروبا حيث كانت سنة ١٨٤٨ بشيراً بيقظة القوميات وبدء الصراع المرير بينها.

وفي بداية سنة ١٨٤٨ تعانق البولنديون والألمان في شوارع برلين، والتشيك والألمان في شوارع براغ. ولكن بتقدم الثورة بدا للعيان أنها لم تكن تعني في وسط أوروبا رغبة في حرية الإنسان بقدر ما كانت تعني قومية تدعو إلى الفرقة والانقسام. فصارت الحرية الفردية والضمانات الدستورية رهناً بتحقيق الأماني القومية، واتجهت حماسة الثورة نحو هدف القومية لا الحرية الفردية، وإذا تعارض الأمران كانت الغلبة للقومية. وقد انعقد أول برلمان ألماني منتخب في مدينة فرانكفورت على نهر المين في مايو سنة ١٨٤٨، وناقش حدود الدولة القومية التي كان يوشك أن ينشئها، فطالب

لألمانيا بالأراضي التي تعتبر فرنسية أو دانماركية من الناحية التاريخية أو بولندية أو تشيكية من الناحية الجنسية. وقد تصدى ولهلم جوردان (١٨١٩– ١٩٠٤) أحد الأحرار الألمان للدفاع عن مطالب ألمانيا بصدد الأراضي البولندية، فنادى بضرورة التمسك بالأثرة القويمة "السليمة" ضد العدالة "المجردة" وبحق الفتح المكتسب بحد السيف، ووصم جميع الألمان الذين يذهبون إلى عدالة وجهة النظر البولندية بأنهم "خونة لشعبهم" ولم تنته سنة ١٨٤٨ حتى تبدد حلم الإخاء بين الشعوب المتساوية في نظام عالمي يقوم على العدالة الديمقراطية وذلك أمام المطالب المبنية على الحقوق التاريخية، و"حقيقة القوة والضرورات الحيوية أو الاستراتيجية المزعومة للأمة. وقد صرح فردريك كرستوف دهلمان (١٧٨٥– ١٨٦٠) أحد المؤرخين الألمان الأحرار– صرح في فرنكفورت في ٢٣ يناير سنة ١٨٤٩ أن "طريق القوة هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن يحقق ويشبع الرغبة في الحرية التي تختمر ولكنها لم تنضج بعد، لأن هذه الرغبة لا تريد الحرية وحدها بل تتعطش أكثر للقوة التي لم تمنح لها بعد. يجب أن تصبح ألمانيا آخر الأمر إحدى الدول السياسية العظمى في القارة الأوروبية".

وقد استعرض جون ستيورات مل الفيلسوف البريطاني الحوادث التي جرت في سنة ١٨٤٨ وشخص الموقف في السنة التالية تشخيصاً يدل على النظر الثاقب، وشكا من أن القومية تجعل الناس لا يبالون بحقوق ومصالح "أي جماعة من الجنس الإنساني سوى الجماعة التي تحمل أسماءهم

وتتخاطب بلغتهم، ووصف المشاعر الجديدة المتصلة بالقومية الأثرة، واللجوء إلى الحقوق التاريخية بأنها مشاعر بربرية، ولاحظ بمرارة أن "كفة الشعور القومي في الجهات المتأخرة في أوروبا وحتى في ألمانيا (حيث كان يظن أن تكون الحال فيها خيراً من ذلك) ترجح محبة الحرية لدرجة أن الشعب يحرض الحكام على سحق الحرية والقضاء على استقلال أي شعب ليس من جنسه أو لا يتكلم بلغته".

وهذا التحول الذي طرأ على طابع القومية في أواسط القرن التاسع عشر لم يحدث بين الألمان فحسب بل تجاوزهم إلى سائر شعوب أوروبا الوسطى والشرقية، فروح العنف الجديدة، وتمجيد أعمال البطولة وإحياء التاريخ الماضي القاتم، واتخاذه مصدراً للوحي والإلهام –وهي ظواهر كتب لها أن تحجب أفق القرن العشرين بالظلام– كل ذلك ظهر لأول مرة في سنة ١٨٤٨، وقد اعتلى البابا بيوس التاسع العرش سنة ١٨٤٦ كمصلح حر، وأصدر أمره للجيوش البابوية بالانضمام إلى جيش سردينيا في الحرب ضد النمسا الكاثوليكية فقوبل هذا القرار في إيطاليا بإعجاب لم يقابل به أي إجراء اتخذه البابا قط. وقد أحرز جيش سردينيا في ٣٠ مايو سنة ١٨٤٨ والحرب في بدايتها نصراً تافهاً لا قيمة له في جويتو، وكان هذا الجيش يمنى بالهزيمة عادة في جميع المعارك التي يخوضها ضد النمسا. وبعد أربعين سنة خلد الشاعر الإيطالي العظيم –جيوسيه كاردوتشي (١٨٣٥–١٩٠٧) ذكرى هذا الانتصار في قصيدته "بيمونتي" فتغنى في طرب وسرور

"بدخان الدم وهو يتصاعد من ساحة الوغي" وقد أدى نفاد صبر الشعب المتزايد إلى اعتبار العنف والثورة في خدمة الأمة من أسمى القيم الخلقية، وحلت التضحية بالنفس في سبيل القومية محل استشهاد القديسين. وتجلت هذه الروح نفسها خارج أوروبا الوسطى في إيرلندا، وفي آسيا فيما بعد. بل إن النشيد الوطني في المكسيك الذي ألف سنة **١٨٥٤** لهو دعوة مدوية إلى الحرب.

جاء في أبياته الأخيرة ما يأتي "إن بنيك يقسمون أن يلفظوا آخر أنفاسهم على مذبحك حين يؤذن النفير أن هبوا إلى ساحة الوغي وقاتلوا ببسالة. لك أيها الوطن أغصان الزيتون! ولهم ذكريات مجيدة! لك أيها الوطن إكليل النصر! ولهم قبر كريم!" وقد احتفل سنة **١٩٥٤** بالعيد المئوي لنشيد "المدافع المدوية" هذا في سائر أنحاء المكسيك احتفالاً غير عادي.

وكان العلماء والكتاب يبادرون دائماً للإدلاء بالأسباب التاريخية والأدبية التي تؤيد مطامع أمتهم والتدليل على أن أمتهم ومطالبها الضرورية هي حالة فريدة لا تنطبق عليها القواعد العامة. وفي حمأة المطالب الجنسية المتضاربة والمطالب المضادة احتدم لهيب الأهواء القومية، وأصبحت مطايا البحث التاريخي مسخرة في الغالب لخدمة الأماني القومية، وأهملت الحرية الفردية. وهكذا أخفقت الثورات التي نشبت سنة **١٨٤٨** في سائر ربوع أوروبا الوسطى في تعزيز قضية الحرية على الرغم من تمسك الكثير من أصحابها بالمثل العليا في صدق وإخلاص. فالبولنديون والبروسيون،

والدانماركيون والألمان، والتشيك والألمان، والكروات والطليان، والصقالبة والمجريون، والبولنديون والأوكرانيون، كل هؤلاء عارض بعضهم بعضاً في قسوة ومرارة، وساعدت هذه المنازعات القومية الحكومات الاستبدادية في عهد مترنخ على أن تثبت وجودها من جديد.

ويرجع السبب الأكبر في إخفاق ثورة ١٨٤٨ إلى أنها أثارت النعرات القومية وأعوزتها حكمة الصبر والتسامح، فآثرت التهريج الحماسي على البناء الإنشائي، ولن تأت سنة ١٨٥٢ حتى انطفأ سراج الجمهورية الفرنسية الثانية، ولم تتم أية خطوة في طريق الوحدة الألمانية أو الإيطالية. ولكن روح القومية كانت تسبح في الهواء، فزادت الطبقة الوسطى –وهي دعامة القومية– من حيث العدد والقوة الاقتصادية، وتحققت أمانيها القومية في العشرين سنة التي انقضت بين سنتي ١٨٥٩، ١٨٧١ ولكنها تحققت لا على أيدي أصحاب المثل العليا القومية ولكن على أيدي الحكومات السابقة على عهد القومية ولمصلحتها، وتحققت لا على أيدي الشعب الواقف خلف المتاريس وبأصوات النواب في البرلمانات، ولكن على أيدي الجيوش النظامية في ساحة الوغي، وبدهاء الدبلوماسية الدولية. وقد دخلت القومية بعد سنة ١٨٤٨ في العصر الذي أطلق عليه الألمان –وكان لهم فضل كبير في هذا التحول– "عصر السياسة الواقعية" وهي سياسة تقوم على القوة والمصالح الذاتية لا على الأقوال الدالة على النزعة الإنسانية.

الفصل الخامس

القومية والسياسة الواقعية

كانت السنوات التي انقضت بين سنتي ١٨٥٢، ١٨٧٨ خطوة حاسمة نحو تحقيق الأهداف القومية في وسط أوروبا، لا عن طريق الثورات الشعبية والدعاية الأدبية، ولكن عن طريق الحكومات والحرب والدبلوماسية.

وكانت العوامل الاقتصادية تؤيد في هذه الفترة فكرة القومية بصورة متزايدة فقد أدى النظام الرأسمالي والصناعي وازدياد شأن الطبقة المتوسطة إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية ونظام الحياة في سائر ربوع أوروبا الوسطى. وزالت فترة الركود القديم، وانهار صرح النظم المحلية أمام وسائل المواصلات الجديدة. وكان فردريك ليست (١٧٨٩- ١٨٤٦) أحد الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة، فأعجب إعجاباً شديداً بالروح القومية في أمريكا، وما شاهده فيها من التقدم الاقتصادي، ثم عاد إلى ألمانيا قنصلاً للولايات المتحدة، وعارض النظرية العالمية في الاقتصاد السياسي التي سادت في القرن الثامن عشر، وتجلى انتصارها في حركة التجارة الحرة بإنجلترا وأراد ليست أن يستعيض عنها بنظريته الجديدة الخاصة "بنظام الاقتصاد القومي" ورأى في الاتحاد الجمركي (الزلفرين) مظهراً لفكرة الوحدة القومية وخير طريق لتحقيقها، وهو الاتحاد الذي أنشأته بروسيا سنة ١٨٢٨، وانضمت إليه معظم الولايات الألمانية. وحبذ ليست فرض

تعريفه جمركية عالية لحماية الصناعة الألمانية، وتشجيعها، وتمكين ألمانيا من منافسة بريطانيا ومن إنشاء شبكة من الطرق الحديدية لتوثيق الصلات بين الولايات الألمانية ومن إنشاء أسطول ألماني لنشر التجارة الألمانية عبر البحار.

ولم يمتد الزمن بليست حتى يرى بعينه تحقيق مشروعاته، فقد أقدم على الانتحار حين خامره اليأس لإحجام قومه عن تأييده. وقد تم تنفيذ برنامجه الخاص بالتصنيع وإنشاء السكك الحديدية على نطاق واسع، وذلك في فرنسا على عهد نابليون الثالث الذي وصل إلى أوج السلطان والشهرة في سنة ١٨٥٦ أي بعد عشرة أعوام من وفاة ليست.

حرب القرم

انتهجت الإمبراطورية الفرنسية الثانية سياسة خارجية معادية للنظام الذي تقرر في مؤتمر فينا والذي كان يثير في أذهان الفرنسيين ذكرى سقوط الإمبراطورية الأولى، لا ذكرى السلام الطويل الذي استتب من جراء هذا النظام. وقد توخى مؤتمر فينا أن يقيم الحواجز والسدود في وجه الثورات القومية. ولكن نابليون الثالث الذي شارك في شبابه في الثورة القومية بإيطاليا نصب نفسه نصيراً للقومية. وكان الرأي العام الحر في بريطانيا يعارض -لأسباب مختلفة- الحكم المطلق الذي يتمتع به ملوك الحلف المقدس، ويؤيد أيضاً الحركات القومية والدستورية بين شعوب أوروبا الوسطى وكان يبدو أن حكم الملوك المطلق يتعارض مع الروح الدستورية البريطانية، والروح القومية الثورية كليهما، وإن كان الاثنان لا يتفقان إلا

قليلاً. وقد انضمت فرنسا إلى إنجلترا في حرب القرم (١٨٥٣- ١٨٥٦) وأيدتا تركيا ضد الروسيا التي كان إمبراطورها نقولا الأول (١٨٢٥- ١٨٥٥) يعد أكبر نصير للحكم الملكي المطلق في سائر أنحاء أوروبا. وشجع نابليون الثالث في أثناء الحرب مملكة سردينيا الإيطالية على الانضمام إلى الحلفاء الغربيين، ورحب رئيس وزرائها -كونت كاميليو كافور (١٨١٠- ١٨٦١)- بهذه الفرصة وإن لم تكن لبلده مصلحة مباشرة في ذلك النزاع. ولكن كافور استطاع خلال مؤتمر الصلح في باريس (١٨٥٦) أن يبسط شكوى إيطاليا ضد النمسا وأن يدعم أسباب التفاهم بينه وبين نابليون بشأن قضية الوحدة الإيطالية.

وكان من الأسباب التي أدت إلى حرب القرم احتلال الجيوش الروسية لولايتي الأفلاق والبغدان على نهر الدانوب. وفي سنة ١٨٥٧ أيد نابليون الثالث مطالب مجلسي هاتين الولايتين التركيتين بشأن تمتعهما بالحكم الذاتي والحياد، واتحادهما تحت حكم أمير وراثي أجنبي، ووضع دستور لهما. ورفضت الحكومة التركية هذه المطالب. بيد أنه في سنة ١٨٥٩ انتخبت كل من الإمارتين إسكندر كوزا (١٨٢٠- ١٨٧٣) حاكماً للولايتين المتحدتين، واعترفت به الحكومة التركية سنة ١٨٦١ ولما استقال في ١٨٦٦ أرغم نابليون تركيا على الموافقة على تعيين الأمير شارل آل هوهنزولرن حاكماً وراثياً لرومانيا المتحدة. على أنه لم يتم الاعتراف باستقلال رومانيا التام إلا بعد سقوط نابليون. وكان ذلك في

مؤتمر برلين (١٨٧٨) أي بعد ثلاث سنوات من تنصيب كارول الأول ملكاً عليها.

توحيد إيطاليا

كانت سنة ١٨٥٩ ذات أثر حاسم أيضاً في وحدة أمة "لاتينية" هي إيطاليا، ثم كان نابليون الثالث أيضاً نصيراً لهذه الوحدة، وإن لم يكن له أيضاً دخل في مراحلها النهائية. وقد جرى في العقد الخامس جدال كبير حول الطرق والوسائل التي تؤدي إلى توحيد إيطاليا، إذ كان الطريق إلى الوحدة يبدو حافلاً بكثير من المشاكل العويصة: تعدد الإمارات والتقاليد التاريخية، والتباين الشديد بين شمال إيطاليا وجنوبها في الأوضاع الاجتماعية، وعدم رغبة البابا في ادماج مملكته التي دامت ألف سنة في أمة إيطالية موحدة، وكان البابا رئيس الكنيسة العالمية في بلاد كاثوليكية وأميراً يبسط سلطانه على رقعة من الأرض. ثم: هل تكون الأمة الموحدة اتحاداً تعاهدياً أو دولة واحدة وهل تكون ملكية أو جمهورية وهل تقوم على أساس التعاون مع البابا أو ضده؟

وكان كارلو كاتانيو (١٨٠١– ١٨٦٩) عالماً نابهاً من علماء ميلان ومن أنصار الجمهورية والاتحاد، وكان يعترف صراحة أن تمتع الولايات الإيطالية المختلفة بالحكم الذاتي هو الوسيلة الوحيدة لتطور الديمقراطية تطوراً مثمراً. وكان مازيني جمهورياً ومتحمساً للوحدة يطالب بقيام دولة إيطالية مركزية على رأسها روما. وكان فنزنسو جيوبرتي (١٨٠١–

١٨٥٢) قسيساً وفيلسوفاً من أهل بيدمنت يرى مستقبل إيطاليا في قيام اتحاد تحت سيادة البابا الفكرية. وكان الارستقراطيون من أهل سردينيا – أمثال كونت بالبو (١٧٨٩– ١٨٥٣) وكافور الذي أسس في ١٨٤٧ جريدة البعث لتكون لسان حال الحركة الإيطالية القومية– يرون أن تكون سردينيا زعيمة إيطاليا.

وقد خيبت ثورة ١٨٤٨ كل هذه الآمال. ففي هذه السنة خاض شارل البرت –ملك سردينيا– (١٨٣١– ١٨٤٩) غمار الحرب ضد النمسويين، وهتف له جنوده "يحيا ملك إيطاليا" بعد الانتصار القصير الأمد الذي أحرزه في جويتو، ولكن النمسويين لم يلبثوا أن أنزلوا بجيشه هزيمة حاسمة في كستوزا (١٨٤٨) ونافارا (١٨٤٩)، واضطرت جمهورية سنت مارك التي أعادها دانيل مانين (١٨٠٤– ١٨٥٧) في البندقية أن تستسلم للنمسويين سنة ١٨٤٩ وكان بيوس التاسع الذي تولى عرش البابوية من ١٨٤٦ إلى ١٨٧٨ يبدو في أول أمره نصيراً للآمال التي علقها عليه الإيطاليون الأحرار وجيوبرتي، ولكن الحوادث التي جرت في سنتي ١٨٤٨– ٩ جعلته يقلب ظهر المجن للحرية والقومية. وقد أعلن القوميون في ٩ فبراير ١٨٤٩ جمهورية رومانية في مدينة روما عاصمة البابوية، وكان من بين زعمائها مازيني من أهل جنوا ويوسف غاريبلدي من أهل نيس، ولكن الجيوش الفرنسية قضت على الجمهورية الرومانية فعاد البابا إلى روما واستعاد سلطته الدنيوية، وعاد "النظام القديم" في جميع أنحاء

إيطاليا، واستمر نفوذ النمسا قائماً فيها. وباءت بالفشل قبل نهاية سنة ١٨٤٩ كافة الحلول المختلفة التي اقترحت قبل سنة ١٨٤٨ لتوحيد إيطاليا.

زعامة سردينيا

وكانت الدولة الإيطالية الوحيدة التي لم يعد إليها "النظام القديم" هي سردينيا. وقد أبقى الملك فكتور عمانويل الذي خلف أباه سنة ١٨٤٩، على النظام الدستوري الذي أدخل في البلاد في السنة الماضية، وذلك بناء على نصيحة كافور، وماركيز ماسيمو دازجليو (١٧٩٨– ١٨٦٦) وقد نالت سردينيا عطف الطبقات المتوسطة في كافة أنحاء شبة الجزيرة باعتبارها المملكة الدستورية الوحيدة في إيطاليا. وكانت الإصلاحات الاقتصادية التقدمية التي استوحاها كافور من إنجلترا مما عزز الثقة في زعامة سردينيا. وقد عقد كافور في ١٨٥٨ تحالفاً سرياً مع نابليون الثالث ضد النمسا، وساعدت الأسلحة الفرنسية سردينيا على انتزاع لمباردي من النمسا سنة ١٨٥٩، ولكن كافور فاق نابليون في دهائه وسياسته، فاستطاع أن يتجاوز نطاق الأهداف المحدودة التي كان نابليون يرمي إليها، فنجح في ضم معظم بقية إيطاليا إلى مملكة سردينيا. وكانت سنة ١٨٦٠ هي السنة الحاسمة التي حددت طريق الوحدة الإيطالية، ففيها قاد غاريبلدي حملته المشهورة المؤلفة من ألف رجل من رجال القمصان ونزل بهم في جزيرة صقلية التي تكون شطراً من مملكة نابلي، وهددت هذه الحملة بنشوب نزاع بين

الجمهوريين المتطرفين، والملكيين من أهل سردينيا، فبادر كافور إلى حسم النزاع لصالح الأخيرين، مما أدى إلى ضم معظم الولايات البابوية وجنوب إيطاليا إلى مملكة سردينيا ونظم كافور –باعتباره من أنصار الحرية وإرضاء لنابليون الثالث والرأي العام الإنجليزي– استفتاء في الولايات الإيطالية ليجعل الوحدة الإيطالية مظهراً لإرادة الشعب. وكان الاستفتاء –في جنوب إيطاليا على الأقل– أبعد من أن يتفق مع رغبة الشعب. ومع ذلك فإن فكتور عمانويل استطاع أن يتخذ لنفسه لقب ملك إيطاليا (١٨٦١–١٨٧٨) وأصبح دستور سردينيا دستوراً للمملكة المتحدة. على أن انتصار فكرة الدولة الإيطالية المركزية، ونجاح الوسائل التعسفية التي اتبعتها سردينيا لم يؤديا إلى إدماج الجنوب في الأمة الإيطالية أو جعل الديمقراطية قوة حية في سائر إيطاليا.

وكانت البندقية حين مات كافور سنة ١٨٦١ لا تزال في يد النمساويين، وروما وما جاورها تحت سيادة البابا. وقد أبرم خلفاء كافور في ١٨٦٦ حلفاً مع بروسيا ضد النمسا، وأسفر انتصار بروسيا عن ضم البندقية إلى إيطاليا، على الرغم من أن النمسا هزمت القوات الإيطالية هزيمة منكرة في كستوزا براً وفي ليسا بحراً. وكان نابليون الثالث قد أيد التحالف بين بروسيا والنمسا، ولكنه أغضب أنصار القومية في إيطاليا بتأييده لسلطة البابا الزمنية. وقد ساق غاريبلدي حملتين إحداهما في ١٨٦٢ والأخرى في ١٨٦٧ بقصد الاستيلاء على روما التي كانت

القوات الفرنسية تدافع عنها. ولم تدخل القوات الإيطالية روما في ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠ إلا حينما انسحب الفرنسيون من روما في أعقاب الحرب الفرنسية الألمانية سنة ١٨٧٠ وقد أجرى استفتاء ضمت بعده روما إلى إيطاليا على الرغم من احتجاج البابا الشديد الذي اعتبر نفسه منذ ذلك الوقت "سجين الفاتيكان" وأصبحت روما عاصمة لمملكة إيطاليا. وقد ظلت بعض الأراضي الإيطالية مع ذلك خارج الدولة القومية الجديدة وهي تريستا واستريا وترنتو وكانت تابعة للنمسا وتتشينو وكانت تابعة لسويسرا ونيس وكورسيكا وكانتا تابعتين لفرنسا. وقد اعتبر كثير من الوطنيين الإيطاليين هذه البلاد "أراضي غير محررة" وكانوا يتوقون إلى استردادها وتطلع بعضهم إلى عودة الإمبراطورية الرومانية وساقوا إيطاليا إلى الحرب وألقوا بها في مغامرات في الحبشة وليبيا كلفت إيطاليا غاليا دون طائل.

الوحدة الألمانية:

كان ما حدث في إيطاليا حافزاً لإحياء القومية في ألمانيا. وقد خيبت سنة ١٨٤٨ آمال ألمانيا أيضاً خيبة مرة، وواجه أنصار القومية نفس المشاكل التي واجهت إيطاليا: تعدد الإمارات والتقاليد التاريخية والتباين بين شمال ألمانيا وجنوبها، والمشكلة الدينية التي تتمثل في العداوة بين البروتستنت والكاثوليك. ولم يكن الألمان يدرون: أتكون ألمانيا دولة مركزية أم اتحاداً تعاهدياً أم تكون جمهورية. ولكن الحال في ألمانيا كان يختلف عن نظيره في إيطاليا في أمر أساسي وهو أنه لم تكن في ألمانيا قوة أجنبية عظيمة

تقوم فيها بدور حاسم، بل على العكس كان يوجد بين الولايات الألمانية دولتان أوربيتان عظيمتان، وكانت الأحقاد والمنافسات بينهما مما يزيد في مصاعب الوصول إلى حل يرضي الوطنيين الألمان فكان بعضهم يتمسك بتكوين ألمانيا العظمى التي تشمل الأملاك النمسوية وبعضهم يفضل تكوين ألمانيا الصغرى دون اشتراك النمسا، والتفاف بقية ألمانيا حول بروسيا. وقد فرضت بروسيا على ألمانيا في العقد السابع من القرن التاسع عشر الحل الذي رأته كما فعلت سردينيا في إيطاليا.

زعامة بروسيا:

وهنا أيضاً نلمح وجوهاً للشبه بين الحالتين. فقد كانت سردينيا وبروسيا إقليمين يقعان على الحدود ولم يكن لهما شأن كبير في التطور الثقافي بإيطاليا وألمانيا. فكانت تورين– عاصمة سردينيا– لا تسمو إلى منزلة أية مدينة أخرى في إيطاليا من الناحية الفكرية والفنية، كما أن برلين– عاصمة بروسيا– لم تبرز في ميدان الفكر إلا في وقت متأخر جداً في تاريخ ألمانيا. وكان كلا الإقليمين يحكمه ملوك طامحون يعتمدون على رجال الجيش وطبقة الارستقراطيين. وهنا تنتهي وجوه الشبه بينهما، ذلك أن جيش سردينيا كان ضعيف البأس يمنى بالهزيمة في الحرب، أما جيش بروسيا فكان مشهوراً بروحه العسكرية. ثم إن سردينيا كانت تضطر في سبيل توثيق الوحدة الإيطالية إلى الاعتماد على العون الأجنبي في كل مرة: في سنة ١٨٥٩، ١٨٦٦، ١٨٧٠ أما بروسيا فكانت تحقق هدفها دون عون

خارجي. يضاف إلى ذلك أن سردينيا لم تحقق إلا نحو عشر الوحدة الإيطالية ولم يلبث مركز الثقل القومي أن انتقل من تورين إلى روما، ففنيت شخصية سردينيا في إيطاليا. أما بروسيا فكونت نحو ثلثي الوحدة الألمانية وأخذ مركز الأمة في برلين يزداد قوة بصورة مطردة. وكانت بروسيا هي التي فنيت فيها ألمانيا، وهي التي بثت روحها العسكرية الاستبدادية في ألمانيا.

وهناك فرق آخر وهو أن كافور كان ينزع إلى الحرية، وينظر بعين الإعجاب إلى انجلترا والغرب. ويحرص على تعاون الطبقات الوسطى، ويكسب فتوحه صبغة شرعية باستصدار القرارات البرلمانية وإجراء الاستفتاء. أما أوتوفون بسمارك (١٨١٥- ١٨٩٨) فكان يحتقر الحرية الغربية والنظم البرلمانية الدستورية، وكان بسمارك سليل أحد النبلاء البروسيين من ملاك الأراضي، وصِنْوا لكافور في بروسيا. وقد عين بسمارك رئيساً لمجلس الوزراء البروسي في ١٨٦٢ ليعزز جانب التاج في كفاحه الدستوري ضد مجلس النواب البروسي بشأن الإشراف على الجيش وزيادته. وقد وقف في وجه المعارضة الحرة العنيفة وناصر الملك والجيش ضد البرلمان والشعب. وقد تضاءلت المعارضة الحرة عند ما كُتب النصر لبسمارك في ثلاث حروب قصيرة وهي إعلاء شأن بروسيا، وطرد النمسا من الاتحاد الألماني، وتأسيس إمبراطورية ألمانية جديدة تحت زعامة بروسيا، وكان ذلك مما حمل على الاعتقاد بأن الحروب يمكن أن تعود بالنفع على الأمة فتزيد من قوتها ورفاهيتها. وقد ولدت هذه الإمبراطورية الجديدة في

ساحة القتال، وأعلن قيامَها في أرض العدو المهزوم- وهو حدث فريد في التاريخ- الأمراءُ الألمان المنتصرون المجتمعون في قاعة المرايا بقصر فرساي الملكي الشهير، عند أبواب العاصمة الفرنسية التي يحدق بها ويحاصرها الجنود الألمان.

وقد ساعد كبار مؤرخي ألمانيا البروتستنتية- وفي مقدمتهم هاينريش فون تريتشكه (١٨٣٤- ١٨٩٦)- على تعبئة الحماس القومي خلف بروسيا، والترويج لنظرية هيجل القائلة بأن الدولة القومية هي مصدر القوانين والأخلاق وهي شخصية عالية، وجوهرها هو القوة. ولما شبت الحرب في سنة ١٨٧٠ كتب تريتشكه يقول "لا يليق بالألمان أن يرددوا العبارات التافهة التي يرددها رسل السلام وعبدة المال ولا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة القاسية التي تنادي بأننا نعيش في عصر الحروب". وقد عززت انتصارات بسمارك الإيمان في نفوس معظم الألمان بتفوق نظامهم الملكي المحافظ على النظام الديمقراطي الغربي. وبدأ لهم أن الحوادث تؤيد ما قاله ليوبولد فون رانكه (١٧٩٥- ١٨٨٦) شيخ مؤرخي الألمان من أن "مصير بروسيا الحقيقي هو أن تكون وأن تظل ملكية عسكرية:" ثم قال "من المستحيل ألا ننزل على حكم التاريخ". ولم تنجح سياسة بسمارك الواقعية في ميدان السياسة والحرب فحسب بل لقد لقيت نجاحاً أشد خطراً في ميدان الفكر الألماني فقد تحققت وحدة ألمانيا وقوتها على حساب الحرية الدستورية والحرية السياسية.

وكان بسمارك قبل كل شيء من أنصار الملكية البروسية لا القومية الألمانية. وقد رفض المبدأ القائل بتحرير الألمان الخاضعين لسلطان دول أخرى، وهو المبدأ الذي ورد في برنامج أنصار الجامعة الألمانية الداعين إلى إدماج الشعوب المتكلمة باللغة الألمانية في جسم الإمبراطورية الألمانية الجديدة، تلك الشعوب التي كانت تعيش في الإمبراطورية النمسوية والروسية وفي سويسرا وهولندا. ولكن بسمارك أذكى لهيب القومية الفرنسية حينما أقدم في ١٨٧١ على ضم ولايتي الالزاس واللورين الفرنسيتين ضد إرادة أهلهما الذين كانوا يرغبون في التبعية السياسية لفرنسا على الرغم من جنسهم ولغتهم.

وقد بنى الألمان دعواهم في المطالبة بالالزاس واللورين على الحقوق التاريخية والجنسية، ورفضوا مبدأ تقرير المصير. كتب تريتشكه يقول "هاتان الولايتان ملك لنا بحق السيف، وسنحكمهما بمقتضى حق أسمى من ذلك، ألا وهو حق الأمة الألمانية في الحيلولة دون بقاء أطفالها التائهين بمعزل عن الإمبراطورية الألمانية. إننا نريد أن نعيدهم إلى أنفسهم، حتى ولو كان ذلك ضد إرادتهم". وقد عارض أرنست رينان (١٨٢٣– ٩٠) العالم الفرنسي هذه النظرية، فأوضح في ١٨٨٢ نظريته الحرة عن القومية في محاضرته المشهورة "ما هي الأمة؟".

القومية في البلقان:

بعد أن تم توحيد ألمانيا وإيطاليا جاء دور القوميات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية. وكان اليونان ساخطين على الحدود التي تقررت لهم في ١٨٣١، فقام اليونان في الخارج بالثورة في تساليا وابيروس وجزيرة كريت. وفي سنة ١٨٧٦ شبت الثورة بين السكان الصقالبة في الولايات التركية ببلغاريا والبوسنة والهرسك. وخف الصرب والجبل الأسود إلى مساعدة ثوار البوسنة وأعلنوا الحرب ضد تركيا ولكن الصرب هزمت هزيمة منكرة، ولم تنج من عواقب الهزيمة إلا بعد أن تدخلت الروسيا، وأعلنت الحرب على تركيا في أبريل ١٨٧٧، وأيدت قضية البلغاريين بصفة رسمية. وقد قررت قوة روسيا العسكرية والسياسة الدولية مصير الشعوب البلقانية في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ فأعلن استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود، وأصبحت بلغاريا ولاية تتمتع بالحكم الذاتي تحت السيادة التركية، وندبت النمسا لإدارة البوسنة والهرسك، وبقيت مقدرنيا جزءاً من تركيا لتنازع البلغار والصرب واليونان عليها.

وقد تمخض الاتصال الوثيق بين الأتراك والغرب عن حركة إصلاحية تقوم على القومية والحرية، وتهدف إلى إدخال الأساليب الحديثة في الإمبراطورية الاستبدادية التي كانت تعيش في العصور الوسطى، ونشأ فيها أدب حديث، وأدباء محدثون أيقظوا في الأتراك وعياً قومياً حديثاً أمثال إبراهيم سناسي (١٨٢٦– ١٨٧١) وكان أول من ترجم الشعر الفرنسي،

وأقدم على إنشاء الصحافة التركية الخاصة، ونامور كمال (١٨٤٠- ١٨٨٨) الذي ألف رواية وطنية مؤثرة باسم الوطن. وقد أيد هؤلاء الرجال المنتمون إلى حزب تركيا الفتاة مدحت باشا (١٨٢٢- ١٨٨٤) فاستطاع أن يضع سنة ١٨٧٦ دستوراً حراً للإمبراطورية التركية، ويشجع التعليم الغربي، وتم افتتاح أول برلمان تركي في مارس ١٨٧٧ ولكنه ما لبث أن انفض سامره، فعاد السلطان إلى حكمه المطلق، كما ارتكست الإمبراطورية إلى عهد القرون الوسطى.

وقد استطاع بعض الوطنيين الأحرار من الأتراك أن يلوذوا بالفرار إلى الخارج، ويقوموا بالثورة من هناك، وكثيراً ما كانوا يتعاونون مع أنصار الأمم الأخرى التابعة للإمبراطورية العثمانية الذين كانوا في المنفى. وقد قاموا في أواخر العقد السابع وأوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر بأول حركة وطنية لإدخال الأساليب الحديثة في دولة آسيوية متأثرين بالروح القومية في أوروبا، وذلك على الرغم من أنهم اضطروا إلى أن ينتظروا ثلاثين سنة حتى أمكنهم أن يحققوا بعض أفكارهم، إذ استطاعوا أن يقوموا بثورة ناجحة في ١٩٠٨ ويعيدوا الدستور التركي. وقد قامت محاولة مماثلة- وإن لقيت نجاحاً أكبر- في تلك الفترة نفسها في الطرف المقابل من آسيا وذلك في اليابان حيث استطاع الإمبراطور المستنير (الميجي) (١٨٢٧- ١٩١٢) أن ينشئ دولة قومية.

كانت مهمة الإصلاح أيسر كثيراً في اليابان منها في تركيا إذ تم الإصلاح في اليابان عن طريق ثورة من أعلى وفي بلد متجانس عنصراً وديناً. وقد سار اليابانيون على نمط بروسيا من حيث الطابع العسكري الاستبدادي في الأمة، وكفاية الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والتعليمية. ومن الناحية الأخرى حاول الأتراك كما حاول الإيطاليون قبل ١٨٦٠ والروس قبل ١٩٠٥ أن يقوموا بإصلاحات قومية ضد حكومتهم. وكان أكثرهم من المفكرين الذين كانوا يستمدون الوحي والإلهام من الجمهورية الفرنسية الثالثة والآداب الفرنسية. وكانت المشكلة الكبيرة التي تواجههم هي اشتمال الإمبراطورية على شعوب كثيرة مختلفة جنساً وديناً. ولم يستطع رجال تركيا الفتاة في فترة حكمهم (١٩٠٨– ١٩١٨) أن يحلوا مشكلة التناقض بين الإمبراطورية ذات الأمم المتعددة التي أرادوا بقاءها، والدولة القومية الحديثة التي أرادوا إنشاءها.

القومية في الولايات المتحدة:

كانت الفترة التي نشبت فيها حروب الوحدتين الإيطالية والألمانية (١٨٥٩– ١٨٧١) توافق الفترة التي حدث فيها صراع مماثل من أجل الوحدة القومية في أمريكا الشمالية. ولم تكن الوحدة القومية التي تحققت سنة ١٧٨٩ ثابتة الدعائم بأي حال من الأحوال. ففي أثناء الحرب ضد بريطانيا (١٨١٢) أظهرت ولايات انجلترا الجديدة روح التمرد الشديد، وأكد مؤتمر هارتفورد سيادة الولايات، وتعارض مصالحها. وحدث في

العقدين التاليين تطوران حاسمان: فقد اعتبر كثير من القوميين الأمريكيين التوسع الإمبراطوري الأمريكي نحو الغرب بشيراً بمصير واضح، فعزز هذا التوسع الشعور بمستقبل مجيد مشترك.

ولكن العداوة تمت في هذه الفترة نفسها بين الجنوب والشمال. فقد أصر الشمال على الوحدة القومية قبل كل شيء، وأصر الجنوب على حق تقرير المصير وحرية الولايات الفردية. وشعر الجنوب بأن الشمال القوى اقتصادياً يستغله. وقد تجلت هذه العداوة في الاحتفال بعيد ميلاد جيفرسون في ١٨٣٠ حيث شرب الرئيس أندروجا جاكسون (١٧٦٧- ١٨٤٥) نخب "اتحادنا: يجب أن نحافظ عليه" ورد عليه جون س. كالهون (١٧٨٢- ١٨٥٠) نائب الرئيس "الاتحاد هو أعز شيء علينا بعد الحرية وأنه ليجدر بنا أن نتذكر دائماً أن الاتحاد لا يمكن المحافظة عليه إلا بتوزيع منافع الاتحاد وأعبائه على وجه المساواة".

وبعد ثلاثين سنة أصبح الصراع أمراً "لا مناص منه" فطالبت الولايات الجنوبية بحق تقرير المصير الذي كانت الولايات الثلاث عشرة تمارسه في ١٧٧٥، وذلك لأنها- أي الولايات الجنوبية- كانت تشعر بقوميتها الخاصة القائمة على وجود حضارة وأوضاع اجتماعية تختلف عن نظيراتها في الشمال. وكان الشمال يعد الانفصال "عصياناً" وحين حاول فرض الوحدة نشبت الحرب بين الولايات. وبعد أربع سنوات من الكفاح المرير- وهو أطول وأغلى حرب نشبت في أي مكان بين ١٨١٥،

١٩١٤- استطاع الشمال أن يحسم النزاع بفضل تفوقه في السكان والقوة الاقتصادية، وهزم الجنوب على الرغم من وطنيته وشجاعته العسكرية لا لتفوق الشمال المادي عليه فحسب بل لأن الزمن كان قد عفي على الفكرة القومية التي كان الجنوب يتمسك بها إذ كان من المستحيل قيام أمة على أساس النظام الإقطاعي القائم على أساس السلطة التعاقبية.

وبعد أن تم انتصار الشمال تمت المحافظة على الصبغة الديمقراطية والفيدرالية وسرعان ما عادت الولايات الجنوبية إلى المشاركة الدستورية الكاملة. على أن فترة إعادة الإنشاء تحت قيادة الشماليين المتطرفين أبقت جذوة السخط متقدة في صدور الجنوبيين وخلقت مشاكل خطيرة للديمقراطية الأمريكية. ومع ذلك فإن الفكرة القومية الأمريكية القائمة على الحرية الفردية والتسامح أثبتت على طول الزمن أنها قوية بحيث تستطيع التغلب على الخلاف بين الولايات بل وتستطيع صهر الملايين من المهاجرين الذين يختلفون جنساً وديناً أشد الاختلاف- في وحدة قومية. وقد أتاحت ميزة الحرية الفردية والتسامح لأمريكا قوة على تحقيق الاندماج التام بين الأفراد وعلى خلق تجانس روحي بين السكان في وقت كانت فيه القارة الأوروبية باستثناء سويسرا تسير في عكس هذا الاتجاه، وذلك أن الشعوب المختلفة الأجناس والمذاهب في أوروبا دخلت- في أواسط القرن التاسع عشر- في فترة من المنازعات القومية المريرة أفضت إلى اضطرابات وحروب لا نهاية لها. وعاقت أو عطلت حركة الحرية والتسامح.

الفصل السادس

المنازعات القومية، والحركات الجامعة

النمسا والمجر:

لقد أدى انتصار بروسيا على النمسا إلى إبعاد آل هابسبورج من ألمانيا وإيطاليا حيث تولوا مقاليد الحكم أحقاباً طوالاً. ومع ذلك فإن العلاقات بين آل هابسبورج وألمانيا عادت فتوثقت حينما تحالف بسمارك مع النمسا سنة ١٨٧٩ ثم اتسع نطاق هذا التحالف الموجه إلى فرنسا فشمل إيطاليا وأقام محوراً في أوروبا الوسطى يمتد خلال برلين وفينا وروما. وكان بسمارك يرجو من وراء هذا المحور أن يدعم سيطرة ألمانيا على القارة الأوربية كما كان يحرص على تفادي مناوأة الروسيا لأن الصداقة بين بروسيا وروسيا كانت في الماضي سياسة تقليدية ذات أهمية. بيد أن إخراج النمسا من ألمانيا وإيطاليا حول أنظارها تجاه البلقان حيث اصطدمت بمطامع روسيا الاستعمارية، وأدى استيلاء النمسا على البوسنة والهرسك إلى ازدياد حدة التوتر بين الدولتين.

وقد أدت كذلك هزيمة النمسا في حرب ١٨٦٦ إلى إعادة تنظيم الملكية فيها، ونالت المجر استقلالها سنة ١٨٦٧ بقيادة فرنكس دياك (١٨٠٣– ١٨٧٦) وبارون جوزيف انفوس (١٨١٧– ١٨٧١) ولم يبق ما يربطها بالنمسا سوى شخص الملك ووحدة السياسة الخارجية والعسكرية. على أن المجر بسطت سلطانها المطلق على رعاياها من

الصقالبة والرومانيين على الرغم من أن المجريين لم يكونوا أغلبية السكان داخل المجر، فحرمت على الأقليات في عهد حكومة كلمان تزرا (١٨٣٠- ١٩٠٢، ورئيس الوزراء ١٨٧٥- ١٨٩٠) حتى حق استخدام لغتهم في المدارس والإدارة وهو حق منح لهم في عهد دياك الذي كان أميل إلى المسالمة والتوفيق. ولقد اتبعت المجر سياسة "التمجير" المتطرفة حتى بين الكروات الذين منحوا الحكم الذاتي داخل نطاق المجر بناء على حقوقهم التاريخية، على أن يكون لهم مجلسهم الخاص، وحق استخدام اللغة الكرواتية. وأراد جوسيب سترو سماير (١٨١٥- ١٩٠٥) أن يعزز مركز الكروات، فأسس الأكاديمية اليوغوسلافية في زغرب عاصمة الكروات، وشجع التعاون بين الكروات والصرب ضد المجريين.

وكان الموقف يختلف عن ذلك في النمسا، إذ تم فيها منذ البداية الاعتراف الدستوري بالمساواة بين القوميات واللغات، وتم تنفيذ هذه المساواة بصورة مطردة. وكان كونت إدوارد فون تافي (١٨٣٣- ١٨٩٥ ورئيس الوزراء ١٨٧٩- ١٨٩٣) يؤيد في عهد رياسته الطويلة للوزارة تقدم الشعوب غير الألمانية في النمسا.

ولكن سياسة التطرف القومي التي جرى عليها الألمان في النمسا بزعامة جورج فون شونرر (١٨٤٢- ١٩٢١٩ وجرى عليها التشيك بزعامة الفتيان التشيك سنة ١٨٩١عرقلت التقدم الديمقراطي في النمسا على الرغم من إدخال نظام الانتخاب العام سنة ١٩٠٧.

الإمبراطورية الروسية:

وكان حال القوميات المختلفة في الإمبراطورية الروسية أسوأ من ذلك كثيراً، اشتد الروس في قمع ثورة البولنديين سنة ١٨٦٣ واتبعوا سياسة "الترويس" المتطرفة لا ضد البولنديين فحسب بل كذلك ضد الأكرانيين وغيرهم من سائر القوميات، بل لقد اتبعوا هذه السياسة ضد الألمان في ولايات البلطيق وضد الفنلنديين الذين كانوا يتمتعون حتى ذلك الوقت بمركز ممتاز فضلاً عن الاعتراف بحقوقهم التاريخية. وقد حاولت الطبقات المتوسطة في بولندا بزعامة رومان ديموسكي (١٨٢٤– ١٩٣٩) أن تصل إلى اتفاق مع الروسيا، آملة أن توحد الأراضي البولندية الخاضعة لسيطرة بروسيا مع بولندا الروسية لتجعل منهما دولة متمتعة بالحكم الذاتي، وشريكة على قدم المساواة مع الإمبراطورية الروسية. ومن جهة أخرى قام جوزيف بلسودسكي (١٨٦٧– ١٩٣٥) بتعبئة العمال البولنديين للقيام بثورة قومية لتحقيق استقلال بولندا عن الروسيا. وازدهرت الآداب البولندية وكان لها شأن عظيم في إيقاظ الوعي القومي بين البولنديين، وأتم اسكندر برخنر أحد علماء بولندا كتابه "تاريخ الأدب البولندي، سنة ١٩٠١ واستعرض فيه التطورات التي حدثت خلال قرن من الزمان وقال "إن الوعي القومي لم يعد مقصوراً كما كان في سنة ١٨٠١ على طبقة النبلاء وبعض أفراد الطبقة الوسطى، بل لقد سرى بين الفلاحين، واليهود

أيضاً.... وعلى الرغم من أن الأمة البولندية تفتقر إلى الاستقلال السياسي ففي وسعها أن تفخر بأنها "تتحرك مع ذلك[١] بفضل آدابها".

وكان البولنديون يتمتعون بالحرية الكاملة في النمسا على حين كانوا يعانون الاضطهاد الشديد في الروسيا وبروسيا، فلم يكن التعليم العالي البولندي مباحاً في هذين البلدين في حين أقامت الحكومة النمسوية جامعتين بولنديتين في لمبرج وكراكاو وكانت المدينة التاريخية الأخيرة هي أيضاً مقر أكاديمية العلوم البولندية الشهيرة. وكذلك لقيت الحياة الأكرانية الفكرية والأدبية التي خمدت أنفاسها في الروسيا مرتعاً لها بين الأكرانيين في النمسا الذين أسسوا في لمبرج سنة ١٨٧٣ جمعية شفشنكو لإنهاض الآداب القومية.

وقد بدأ فيها ميخايلو هراشقسكي (١٨٦٦– ١٩٣٤) نشر كتابه "تاريخ أكرانيا" سنة ١٨٩٨. على أن الاضطهاد الروسي لم يحقق أهدافه على الرغم من اشتداد وطأته بعد سنة ١٨٨١ فقد قامت نهضة قومية عجيبة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين كثير من القوميات في الإمبراطورية الروسية ولاسيما بين الفنلنديين والاستونيين واللاتفيين واللتوانيين، وارتفعت لغات الفلاحين الوطنية إلى لغات أدبية، وتبوأت مكانها إلى جانب اللغة السويدية (في فنلندا) والألمانية (في ولايات

---

[١] Epur si muove ويقال إن جاليليو قال هذه العبارة بعد أن أرغمه رجال السكنية على إنكار القول بأن الأرض تدور حول الشمس.

البلطيق). وقد أسس الياس لوترو (١٨٠٢– ١٨٨٤) سنة ١٨٣١ الجمعية الفنلندية الأدبية، ونشر قصيدة كاليفالا التي تتحدث عن سير الأبطال الفنلنديين وجاهد في سبيل المساواة بين الفنلنديين والسويديين في فنلندا. وقد انتصر الفنلنديون على السويديين فصار السواد الأعظم من السكان في فنلندا يتكلمون الفنلندية ولكن اللغة السويدية لا تزال تتمتع بالمساواة الكاملة في فنلندا الديمقراطية وإن لم تتخاطب بها سوى أقلية صغيرة من أهل المدن.

القومية في أوروبا الغربية:

وكان البلجيكيون المتكلمون باللغة الفلمنكية أيضا ممن ناضلوا في سبيل المساواة اللغوية داخل مجتمع ديمقراطي، ونجحوا في هذا النضال، ضد اللغة الفرنسية التي كانت سائدة فيما مضى. وقد قامت الآداب القومية الناهضة بدور كبير في إيقاظ الشعور القومي بين الفلمنكيين يماثل الدور الذي قامت به هذه الآداب بين الكاتاليين في شمال شرق إسبانيا حيث قام بونافنتورا كارلاس أريبو (١٧٩٨– ١٨٦٢) بنشر قصيدته "أردا ألاباتري" سنة ١٨٣٣ وناضلت الحركات القومية في ولاية كاتالونيا والباسك من أجل إعادة تنظيم إسبانيا على أساس تعاهدي (فيدرالي)، وهو اتجاه أيده فرنسسكو مرجال في كتابه "لاس ناسيو ناليدادس" (١٨٧٧). وقد تحققت بعض هذه الآمال في الجمهورية الأسبانية القصيرة الأمد (١٩٣١– ١٩٣٩) التي منحت الكاتاليين والباسك الاستقلال

الذاتي الإقليمي، ولكن دكتاتورية جنرال فرانكو الظافرة أعادت المركزية المستبدة.

وقد حلت الخلافات القومية في أوروبا الشمالية الديمقراطية بالانفصال السلمي: فاستقلت النرويج سنة ١٩٠٥ بعد أن اتحدت مع السويد سنة ١٨١٤، واستقلت أيسلندا سنة ١٩١٨ بعد أن ظلت متحدة مع الدانمرك منذ سنة ١٣٨٠؛ وظلت الأمم النوردية (الدانمرك وأيسلندا والنرويج والسويد ثم فنلندا إلى حد ما) تحتفظ- على الرغم من استقلالها- بشعور قوي من التضامن ورغبة في التعاون. على أن حركة الجامعة الاسكندنافية التي تهدف إلى توثيق أواصر الوحدة لم تستطع أن تقيم اتحاداً نوردياً، وكان هنريك إبسن الكاتب النرويجي العظيم (١٨٢٨- ١٩٠٦) من كبار أنصار هذه الحركة.

المشكلة الأيرلندية:

لجأ بعض الأيرلنديين إلى العنف لفصل أيرلندا عن بريطانيا في الوقت الذي كان فيه بعض زعماء أيرلندا أمثال شارل ستيوارت بارنيل (١٨٤٦- ١٨٩١) يجاهدون جهاداً موفقاً بالتعاون مع البريطانيين الأحرار للحصول على الحكم الذاتي بالوسائل الدستورية. وقد قدم وليم غلادستون (١٨٠٩- ١٨٩٨) أول مشروع للحكم الذاتي إلى البرلمان البريطاني في سنة ١٨٨٦، وتم إقرار المشروع الثالث لقانون الحكم الذاتي في سنة ١٩١٤ ثم انتشرت جمعية الأخوان الايرلنديين الجمهوريين- ويسمون

أنفسهم أيضاً بالفنيانيين نسبة لأبطالهم الخرافيين في القديم- انتشاراً واسعاً في العقد السابع من القرن التاسع عشر في أيرلندا كما انتشرت بين الأيرلنديين المقيمين في الولايات المتحدة.

ولكن اصطباغ الإدارة الأيرلندية بطابع الحرية بصورة مطردة، والإسراع في تحسين أحوال الفلاحين في أيرلندا أديا إلى إضعاف الحركة القومية السياسية قبل نهاية القرن. وإزاء هذه الظروف تحول القوميون إلى النشاط الثقافي والتعليمي لإثارة العواطف القومية فأسسوا الجمعية الرياضية الغيلية في ١٨٨٤ لإحياء الألعاب الأيرلندية، وأهم من ذلك ما بذلوه من الجهود لإحياء اللغة الأيرلندية.

وقد أصبح دوجلاس هايد (١٨٦٠- ١٩٤٩) في سنة ١٨٩٣- وهو بروتستنتي أيرلندي من سلالة انجليزية- أول رئيس للعصبة الغيلية التي نوهت بضروة تجريد الأمة الأيرلندية من الصبغة الإنجليزية، وببعث اللغة الغيلية والتقاليد الكلتية القديمة. ثم أشعل الشعراء والخطباء جذوة الفخر بماضيهم العنصري وقالوا:

ألم يسكن الجنس الكلتي قديماً في معظم أنحاء أوروبا "واستوطن بلاد اليونان وأحرق روما الناشئة؟" بل لقد قامت حركة في تلك السنوات تدعو إلى توحيد الأجناس الكلتية مثل الغيليين وأهل ويلز والبريتون. ومع ذلك فإن العصبة الغيلية لم تستطع القضاء على اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة السائدة بين الأيرلنديين، وكان زعماء النهضة الأدبية الأيرلندية العظمى

(١٨٩٠- ١٩٢٠) يتخذون اللغة الانجليزية أداة تعبير لهم: وليم بتلر بيتس (١٨٦٥- ١٩٣٩) وجون ملنجتون ساينجي (١٨٧١- ١٩٠٩) وجيمس جويس (١٨٨٢- ١٩٤١) وقد أذاع مسرح أبى شهرة أيرلندا ودبلن في العالم كله. ولكن الحركة الغيلية إذ نادت بانفصال أيرلندا ساعدت على إحياء القومية الأيرلندية في القرن العشرين. وقد أصبح آرثر جريفث (١٨٧٢- ١٩٢٢) أحد أعضاء جمعية الأخوان الأيرلنديين الجمهوريين في سنة ١٨٩٩ محرراً لصحيفة "أيرلندا المتحدة" وساعد على تأسيس جمعية "سن فاين" (أنفسنا) سنة ١٩٠٥، وقد نوهت الحركة الغيلية بشأن القومية الاقتصادية كما نوهت بشأن القومية الثقافية والسياسية.

هذا وقد ساعدت الهزائم الأولى التي منيت بها بريطانيا في حرب البوير على إحياء هذه الروح الفنيانية في ١٨٩٩ كما ساعدت الهزائم البريطانية الأولى في الحرب العالمية الأولى على قيام شرق أيرلندا بالثورة سنة ١٩١٦ وإعلان الجمهورية الأيرلندية. وقد استطاع آرثر جريفث بعد انتصار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى أن يحقق أماني جمعية سن فاين فوقع معاهدة ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ التي جعلت من دولة أيرلندا الحرة أمة مستقلة بحق.

القومية في البلقان:

إن تسوية سنة ١٨٧٨ لم تضع حداً لنفك الإمبراطورية العثمانية وما أعقبه من المنازعات بين ورثتها، فقد ظلت القلاقل والاضطرابات قائمة في البلقان، ولم تقتصر جهود الأمم المسيحية الجديدة على إخراج تركيا من أوروبا بل أخذ بعضها يحارب بعضاً، كل يسعى لمد رواقه إلى أوسع الحدود التي وصل إليها فيما مضى؛ وكانت مقدونياً هي محل النزاع بينهم. وكانت الهيئة الثورية المقدونية الداخلية (هـ ث م د) في بلغاريا، والأماني القومية التي نادى بها نقولاً بازيك (١٨٤٥- ١٩٢٦) رئيس وزراء الصرب، وفنزيلوس (١٨٦٤- ١٩٢٦) رئيس وزراء اليونان- كل ذلك كان له أثر واضح في نشوب الحربين البلقانيتين في سنتي ١٩١٢، ١٩١٣ وهما الحربان اللتان أدتا بصفة مباشرة إلى الحرب العالمية الأولى. وقد صار الصربيون يرون أنه سيكون شأنهم في توحيد صقالبة الجنوب شأن بيدمنت أو بروسيا وذلك بعد هزيمتهم للترك في الحرب البلقانية الأولى وللبلغاريين في الحرب البلقانية الثانية وكان عدد كبير من هؤلاء الصقالبة يعيش في النمسا والمجر وفي البوسنة والهرسك.

وقد اغتال القوميون الصربيون ولي عهد النمسا في سراجيفو عاصمة البوسنة في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ فدعا ذلك النمسا إلى الأخذ بالثأر، واتسع نطاق النزاع بين النمسا والصرب فصار نزاعاً بين الجامعة الألمانية والجامعة الصقلبية. وكان الألمان والمجريون في مملكة آل هابسبورج حلفاء

مخلصين لألمانيا منذ سنة ١٨٧٩ ولكن الروس كانوا يؤيدون الصرب لأنهم كانوا يعدون أنفسهم زعماء حركة الجامعة الصقلبية، ولاسيما ضد حركة الجامعة الألمانية التي تنادي بالتوسع جهة الشرق.

الجامعة الألمانية:

قام أرنست هس (١٨٤٦– ١٩٠٨) وهنريش كلاس (١٨٦٨– ١٩٥٣) بتأسيس اتحاد الجامعة الألمانية سنة ١٨٩١ واستمدوا كثيراً من أفكارهم من أرندت وليست وتريتشكه وطالب دعاة الجامعة الألمانية قبل كل شيء بإنشاء ألمانيا الكبرى (المجال الحيوي) وإنشاء مستعمرات عبر البحار وأسطول كبير. وكان لإصرارهم على انتهاج سياسة تقوم على التوسع والأنانية القومية الصارمة أثر كبير في كثير ممن لم ينتسبوا إلى الاتحاد نفسه. ولم يهدفوا أولاً إلى إنشاء إمبراطورية استعمارية واسعة. بل كان الذي يعنيهم أكثر من ذلك هو مصير "إخوانهم في السلالة" خارج حدود الإمبراطورية الألمانية ولاسيما في النمسا والمجر. وقد جَدَّد كثير من دعاة الجامعة الألمانية مطالب أرندت بضرورة "اتحاد" السويسريين والهولنديين بل الاسكندنافيين مع ألمانيا في أخوة نوردية عنصرية كبرى، وتلقف دعاة الجامعة الألمانية في النمسا بزعامة شونرر هذا البرنامج وروجوا له، وكانوا أساتذة هتلر في كفاحهم المرير ضد اليهود والصقالبة "المنحطين" عنصرياً.

وكان يبدو أن الحرب العالمية الأولى التي تحالفت فيها ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا أتاحت الفرصة لتكوين "أوروبا الوسطى" المتحدة تحت

زعامة ألمانيا، كما كان لفكرة الجامعة الألمانية بعد سنة ١٨٩٠ التي اعتزل فيها بسمارك الحكم تأثير متزايد على الرأي العام بل على سياسة الحكومة الألمانية. وقد بلغ هذا التأثير ذروته في ألمانيا الهتلرية.

الجامعة الصقلبية:

كانت الجامعة الألمانية في صميمها حركة ترمي إلى توسيع سلطان ألمانيا وبروسيا عن طريق إدماج الشعوب الأخرى المتكلمة باللغة الألمانية- حتى ولو كرها- في ألمانيا الكبرى التي تصبح بسكانها ومواردها الاقتصادية ونطاقها الإقليمي أهلاً للزعامة الألمانية العالمية. وكذلك كانت الجامعة الصقلبية في صميمها حركة ترمى إلى توسيع سلطان روسيا الكبرى عن طريق إدماج الشعوب الأخرى المتكلمة باللغة الروسية- حتى ولو كرها- في روسيا الكبرى التي تصبح بسكانها ومواردها الاقتصادية ونطاقها الإقليمي أهلاً للسيطرة الروسية العالمية، أو كما كانت تسمى في القرن التاسع عشر- الملكية الروسية العالمية وكان من المسلم به في كلتا الحالين أن الوحدة والعنصرية واللغوية تؤدي إلى وحدة في الحضارة والأفكار السياسية ورغبة في الاتحاد، والواقع أنه لم تكن ثمة صلات ثقافية بين الشعوب الصقلبية المختلفة. فالصلات التي تجمع بين الحضارة البولندية والحضارة الروسية هي أقل من الصلات التي تجمع بين الحضارة البولندية وبين حضارة أوروبا الكاثوليكية وكثيراً ما كانت العداوة بين الشعوب

الصقلبية- على الرغم من النظرية الصقلبية- أشد من عداوتها للشعوب غير الصقلبية.

وإن كراهية البولنديين للروس والأكرانيين للبولنديين والصربيين للبلغار لهي دليل قاطع على العداوة المتوارثة بين الصقالبة الذين يجاور بعضهم بعضاً. على أن فكرة الجامعة الألمانية والجامعة الصقلبية- على الرغم من استنادها إلى أسس خيالية- أثرت تأثيراً عاطفياً في كثير من الألمان والروس وكانت في مقدمة الأسباب التي أدت إلى الحربين العالميتين في القرن الحالي.

وقد بدأت الجامعة الصقلبية في الأصل بين الصقالبة في النمسا، وانعقد أول مؤتمر للجامعة الصقلبية برياسة بالاكي في يونية ١٨٤٨ بمدينة براغ وطالب بتحويل مملكة آل هابسبورج إلى اتحاد تتساوى فيه الشعوب التي تكون الأغلبية فيها للصقالبة. ولم يتجه التشيك إلى الروسيا وهم الذين كان زعماؤهم يقدحون في الروس إلا بعد أن أثبت الاتفاق بين النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ فشل الاتحاد.

وقد انعقد المؤتمر الثاني للجامعة الصقلبية سنة ١٨٦٧ في موسكو وطالب بزعامة روسيا للعالم الصقلبي. وشارك معظم دعاة الجامعة الصقلبية في الإيمان بأن الله قد اختار الشعب الروسي لإنقاذ البشرية، وأعلنوا أن الروس هم الشعب المسيحي الحق، وأنهم حماة الأرثوذكسية (الدين الحق)، وأنصار السلام والعدالة الاجتماعية، ودعوا إلى التبشير بهذا الإنجيل بين

جميع الأمم. وكان الكاتب الروسي الكبير فيودور دستوفسكي (١٨٢١– ١٨٨١) أحد الدعاة الكثيرين لنصرة الصقالية والجامعة الصقلبية. وقد أحيا الروس الشيوعيون الذين قضوا في نوفمبر ١٩١٧ بقيادة لينين (فلاديمير اليانوف، ١٨٧٠– ١٩٢٤) على النظام الديمقراطي القصير الأمد الذي أقامته ثورة مارس ١٩١٧ أحيوا الفكرة القائلة بأن الروس هم المنقذ القومي المنتظر، وأعلنوا أن الروس هم الشعب الاشتراكي الحق وهم حماة الماركسية (الدين الحق) وهم أنصار السلام والعدالة الاجتماعية، ودعوا إلى التبشير بهذا الإنجيل بين جميع الأمم. وقد حققوا في سنة ١٩٤٥ أعظم حلم جرئ كان يحلم به دعاة الجامعة الصقلبية في القرن التاسع عشر ألا وهو انضواء جميع الصقالبة تحت لواء الزعامة الروسية ومد حدودهم إلى نهر الأودر وبحر الأدرياتيك، وهزموا الجامعة الألمانية التي نادي بها أدولف هتلر (١٨٨٩– ١٩٤٥) وهو الذي حقق سنة ١٩٤١ بوصفه زعيماً للأمة الألمانية أعظم حلم جرئ كان يحلم به سابقوه من دعاة الجامعة الألمانية.

الجامعة الآسيوية:

كان المغول هم أول من أنشأ إمبراطورية آسيوية جامعة، وقد امتد ملكهم بعد وفاة جنكيز خان في ١٢٢٧ من بحر الصين إلى نهر الدنيبر. ثم بدأت مملكة السماء (الصين) فيما بعد في نظر أهلها وكأنها هي عالم الحضارة "فجميع البلاد تخضع للصين في الداخل والخارج" وفي نهاية القرن

السادس عشر قرر هيدوشي تويو تومي أن يتحدى باسم اليابان زعامة الصين العالمية، ووعد في خطاب له إلى حاكم جوا البرتغالي في الهند بأنه "بعد إتمام رسالتنا السماوية في قهر الصين سنجد في الحال طريقاً يوصلنا إلى بلدكم، وستقوم سفننا الحربية وجنودنا بانجاز المهمة الموكولة إليهم غير أبهمين ببعد الشقة أو بما عسى أن يواجههم من المحاربين". وخرجت اليابان في القرن العشرين مرة أخرى لغزو الصين وما والاها، وهي تؤمن بأنها "بلاد مقدسة يحكمها ابن السماء" وأن المبدأ الإمبراطوري يجب أن ينتشر في البحار السبعة ويبسط سلطانه على القارات الخمس تحقيقاً "لرسالة اليابان الداعية إلى السلام".

وقد حاولت اليابان تحت شعار الجامعة الآسيوية أو آسيا للآسيويين أن تعبئ السكان والموارد في سائر البلاد الشاسعة الممتدة من شواطئ أفريقية الشرقية إلى غرب المحيط الهادي ليكون ذلك أساساً لزعامة اليابان العالمية. وبعد أن هزمت اليابان في ١٩٤٥ انتقل لواء الزعامة إلى الصين مرة أخرى، وقد قطعت الجامعة الآسيوية صلتها بتقاليد الحرية الغربية وتحولت إلى الجماعية شأنها في ذلك شأن الحركتين الجامعتين العظيمتين في القرن العشرين وهما الجامعة الألمانية والجامعة الصقلبية.

الفصل السَابع

العنصرية والجماعية

القومية الإحيائية (البيولوجية)

ارتفع شأن العلوم الإحيائية (البيولوجية) في أواخر القرن التاسع عشر. وكان لها- بصورة عامة- تأثير قوي في القومية وذلك بالإضافة إلى مبدأ تنازع البقاء الذي نادي به داروين. ثم عادت القَبَلِيَّةَ "الطبيعية" القديمة فظهرت في صور وأشكال حديثة على حين كانت النظرية الغربية عن القومية نظرية سياسية تقوم على حرية الفرد وهذه النزعة القبلية ترسي قواعد القومية كما ترسي ولاء الفرد روحياً وسياسياً على أساس النسب أو الدم الذي يتغلغل- فيما يزعمون- في أعماق الطبيعة البشرية، ويحدد خصائص هذه الطبيعة. وكان أرثر دي جوبينو (١٨١٦- ١٨٨٢) أول من وضع أصول القومية الإحيائية الجديدة في بحث له بعنوان "مقال في بيان التفاوت بين الأجناس البشرية" (١٨٥٣- ١٨٥٥) قال فيه إن "الدم" ذو أهمية عظمى وإن الناس يتفاوتون في العبقرية وإن الحضارة لا يمكن أن تنقل من شعب إلى شعب. ولذلك فالأجناس المتأخرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى أرفع.

وقال جوبينو: إن الشعب التيوتوني أو الألماني هو الشعب "المختار" إذ العبقرية العنصرية مرهونة بنقاء الدم كما قال إن المصاهرة مضرة بالحضارة. وقد شجع جوبينو مذهب عبادة الأسلاف باعتباره وسيلة

للمحافظة على بقاء الأجناس الراقية وتمكينها من الاضطلاع برسالتها في زعامة العالم.

مناهضة السامية في فرنسا:

وكان أبرز مظاهر النظرية العنصرية هو مناهضة السامية، ومعارضة الفردية والحرية اللتين عدتا مسئولتين عن تدهور أوروبا، وأدتا إلى تحرير اليهود وامتزاجهم بالشعوب الأخرى. وقد ذهب المناهضون للسامية إلى أن اليهود إنما هم "أجانب" في الأوطان الأوربية وأعلنوا أن فلسطين هي وطنهم الحقيقي، ورأوا أن إبعادهم من محيط الحياة السياسية والثقافية في بلادهم يفضى إلى إعادة سلامتهم العنصرية والروحية. ونشر ادوارد دروموا في فرنسا كتابه "فرنسا اليهودية" سنة ١٨٨٦، وذهب المناهضون للسامية إلى الظن بوجود "مؤامرة" يهودية تتعاون في الغالب مع الانجلو سكسون والألمان والبروتستنت لتحطيم فرنسا الكاثوليكية والتقليدية. وقد ظهرت الدعوة إلى مناهضة السامية بصورة سافرة في قضية دريفوس، وهو الضابط اليهودي الوحيد في هيئة القيادة الفرنسية العامة وقد حوكم في سنة ١٨٩٤ بتهمة التجسس لصالح الألمان، ونشبت معركة مريرة حول براءته وادعى خصومه أن مصلحة الأمة الذاتية وسلامتها مقدمة على العدالة "المجردة" والاعتبارات الخارجية.

وكان شارل مورا (١٨٦٨– ١٩٠٢) وموريس باريس (١٨٦٢– ١٩٢٣) أول من وضع– في جلاء ووضوح– أصول القومية الجماعية التي

تنادي بنبذ مذهب الحرية الإنسانية باعتباره مذهباً عفى عليه الزمن، والأخذ بمبدأ المصلحة القومية الذاتية واتخاذ الإجراءات الحاسمة السريعة. وطالب مورا بتقديم مصلحة فرنسا على كل اعتبار "فرنسا أولاً" ونادي بضرورة اتخاذ الإجراءات القومية (الإجراءات الفرنسية) ضد كل دعوة إلى الأخذ بأسباب الأناة أو المهادنة، وذهب باريس إلى أنه لا سبيل إلى إنقاذ فرنسا إلا بالوحدة القومية القوية في التفكير والشعور والبعد عن أسباب الفرقة بين الطبقات والشقاق بين الأفراد، واندماج جميع الفرنسيين في وحدة شاملة قوية، ولا يكون ذلك إلا بالاعتراف بأن أصولهم العميقة المشتركة تتغلغل في أعماق الأجيال السالفة، وبالعودة إلى أرض الآباء والأجداد. وقال باريس إن الناس فقدوا خصائصهم الخلقية والروحية حينما "اجتثت أصولهم" كما قال عنهم في روايته المسماة "الغرباء" (المجتثون).

ويذهب دعاة القومية الذين ينوهون بذكر "الدم" والأسلاف إلى أن القومية مسألة حتمية لا مجال فيها للاختيار إذا الفرد مسير– لا مخير– بالوراثة البيولوجية. "بالأرض والأموات" كما قال باريس أو "بالدم والأرض" كما قال هتلر.

القومية اليهودية:

قام تيودور هرتزل (١٨٦٠– ١٩٠٤) الصحفي النمسوي بتحرير نشرته المسماة "الدولة اليهودية" في سنة ١٨٩٦ وطالب فيها بـ"وطن بلا

شعب" لـ "شعب بلا وطن" وذلك في الوقت الذي ثارت فيه قضية دريفوس، وعلى أثر الدعوة لمناهضة السامية.

ولم يكن هرتزل يعلم في ذلك الحين أن "محبي صهيون" قاموا في الروسيا– على أثر اضطهاد الساميين في سنة ١٨٨١– بتحريض اليهود على العودة لأرض الأجداد في فلسطين وأن الرواد الأول منهم هاجروا إليها "لاسترداد" هذه البلاد. وأصبح "صهيون التاريخي" هو هدف القومية الحديثة، وتولى هرتزل قيادة هذه الحركة وتم إنشاء هيئة صهيونية عالمية، وانعقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ للمطالبة بإنشاء وطن يهودي في فلسطين يكفله القانون الدولي. وكانت فلسطين في ذلك الحين ولاية تركية أغلب سكانها من العرب.

وحدث في أثناء الحرب العالمية الأولى– أي بعد عشرين عاماً من المؤتمر الأول– أن وعد آرثر بلفور على لسان الحكومة البريطانية ببذل أقصى جهدها لتسهيل "إقامة وطن قومي في فلسطين" للشعب اليهودي، على أن يكون من المفهوم– بشكل واضح– أنها لن تتخذ أي إجراء من شأنه أن يضر بما تتمتع به الطوائف غير اليهودية في فلسطين من حقوق دينية ومدنية أو بما يتمتع به اليهود في أي بلد آخر من حقوق أو مركز سياسي". وكان عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين ضئيلا بين سنتي ١٩١٩، ١٩٣٣ ونجح المهاجرون الجدد في إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة قومية، وازدهرت الحياة الثقافية اليهودية على الرغم من أنه لم يكن ثمة

أمل في وجود أغلبية يهودية في فلسطين. ولكن الموقف تغير في الحرب العالمية الثانية إذ أن مناهضه هتلر للسامية بعد سنة ١٩٣٣ حفز كثيراً من يهود أوروبا إلى التماس مأوى لهم في فلسطين. وقد ساعدت المذابح التي قتل فيها النازي ملايين اليهود على تعزيز القومية اليهودية وكانت أكبر عقبة في سبيل قيام دولة يهودية هو وجود أغلبية عربية كبيرة تحرص على الدفاع عن الطابع القومي لوطنها وعلى وممارسة الحق في تقرير مصيرها، فضلاً عن تأييد الشعوب الإسلامية والشعوب العربية المجاورة لعرب فلسطين فنشبت حرب بين المهاجرين اليهود في فلسطين والدول العربية وأسفرت عن قيام الدولة اليهودية في مايو سنة ١٩٤٨.

مناهضة السامية في ألمانيا:

لم يكن لنظرية جوبينو العنصرية سوى أثر ضئيل جداً في فرنسا. وقد انتصرت العناصر الحرة في قضية دريفوس ولم تلق العنصرية قبولاً لدى الكثير من مفكري فرنسا ونوه كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال ميشيليه ورينان بأن الاختلاط العنصري هو التربة الخصبة التي تترعرع فيها القومية الفرنسية والدعامة الضرورية لقيام سياسة حرة، وكتب لويس جولي في كتابه عن أصل القوميات أن التنويه بشأن الأسلاف ينافي مبادئ ١٧٨٩ وأن "الدعوة إلى قيام جماعة من الناس مجردة من عاطفة المحبة والبغضاء الناشئة عن وحدة الأصل لهي أسمى من الدعوة القائمة على الاعتراف بهذه العواطف "الطبيعية" من المحبة والبغضاء. إن امتزاج الأجناس البشرية كما

حدث في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة من العوامل التاريخية الكبرى التي عادت بالفائدة على الجنس البشري.

وما الدول الكبرى في العالم إلا الدول التي غابت فيها الفروق بين القوميات المختلفة والسلالات العنصرية الداخلة في تكوينها بقدر الإمكان ولم يبق من آثارها إلا القليل". وقد كتب الكسيس كومت دى توكفيل (١٨٠٥- ١٨٥٩) إلى جوبينو أن مقاله عن التفاوت بين الأجناس البشرية يتنافى مع الحرية الفردية وأكد له أن أفكاره لا تجد مجالاً في فرنسا إلا إذا عادت إليها من الخارج ولاسيما من ألمانيا، وذلك أن الموقف في ألمانيا كان مختلفاً عنه في فرنسا إذ قام كبار الفنانين والعلماء في ألمانيا وأيدوا قضية مناهضة السامية وأضفوا عليها ثوباً من الإجلال والإكبار. وقد بذل ريتشارد فاجنر (١٨١٣- ١٨٨٣) جهوداً كبيرة في الدعوة لمناهضة السامية ونشر هنريش فون ترتشكه (١٨٣٤- ١٨٩٦) -أشهر مؤرخي ذلك العصر- مقالة في سنة ١٨٧٩ بعنوان "اليهود هم أصل نكبتنا" وكانت هذه المقالة هي اللواء الذي انضوت تحته الحركة الداعية لمناهضة السامية.

وقد أصبحت ألمانيا وطن الدعوة الحديثة لمناهضة السامية. ففيها تقررت أصول هذه الدعوة وفيها وضع شعارها. وكان الأدب الألماني أغنى الآداب في الدعوة لمناهضة اليهود. وفي سنة ١٨١٥ طالب فردريك روخ- أستاذ التاريخ بجامعة برلين- بأن يضع "العدو اليهودي" علامة مميزة

على لباسه لتسهل معرفته. وفي سنة ١٨٨١ ألف يوجين دهرنج- أحد الفلاسفة الاجتماعيين- كتاباً أسماه "المسألة اليهودية كمشكلة عنصرية وخلقية وثقافية والحل التاريخي العالمي لها" واقترح في هذا الكتاب بعض "وجوه العلاج" التي استعملها أدولف هتلر فيما بعد. وفي الوقت نفسه تألف حزب العمال المسيحي الاشتراكي بزعامة أدولف ستوكر، وهو أحد الأساقفة البروتستنت من ذوي النفوذ وواعظ البلاط الملكي في برلين، وبزعامة فاجنر أستاذ الاقتصاد السياسي بجامعة برلين، وذلك لمعارضة الحرية الرأسمالية والماركسية العمالية لاعتقادهم أن هذين المذهبين يستمدان وجودهما من وحي اليهود ويخضعان لسيطرتهما. وفي سنة ١٨٩٩ قام هوستون ستيوارت تشمبرلين (١٨٥٥- ١٩٢٧) وهو صهر ريتشارد فاجنر بنشر كتابه "أسس القرن التاسع عشر" الذي أصبح المصدر العلمي لكتاب ألفريد روزنبرج "خرافة القرن العشرين" وفي هذا الكتاب فصل المؤلف نظريات هتلر العنصرية. ومن الأمور التي مهدت الطريق لقبول الشعب الألماني- بمحض إرادته- فكرة القومية العنصرية والجماعية التي نادي بها هتلر، تلك الحركة الداعية إلى مناهضة السامية، والنظرية الألمانية القائلة بوجوب قيام الحضارة الألمانية على أسس مخالفة لحضارة الغرب ومناهضة لمذهب الحرية.

القومية الجماعية:

لقد نوهت القومية الجماعية التي دعا إليها شارل مورا بوجوب سيطرة المجتمع القومي على الفرد وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد تقديماً مطلقاً، ووجوب القيام بإجراء حازم على يد طليعة من القوم معتصمة بحبل الاتحاد والنظام ومجهزة بالسلاح، وهذه الطليعة هي الصفوة المختارة التي تقبض على زمام السلطة في اللحظة الحاسمة. وكان مورا يعتقد أن الديمقراطية المتحررة في البلاد الغربية الحديثة على النحو الذي تطورت عليه في انجلترا ما لها إلى الزوال. ولم يكن لهذه النظريات في فرنسا سوى أثر ضئيل فيما عدا الفترة الوجيزة التي ساد فيها حكم المارشال هنرى بيتان، وهو الحكم الذي فرض على فرنسا عقب انتصار الألمان. ولكن هذه النظريات وجدت تربة مستعدة لقبولها في البلاد التي لم تتهيأ للديمقراطية الغربية فرصة التغلغل فيها.

وقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار الحكومات التقليدية والنظام الاجتماعي في معظم بلاد أوروبا الوسطى والشرقية، كما فتحت الطريق أمام الفكرة الجماعية. ففي نوفمبر ١٩١٧ قاد نيكولاي لينين (١٨٧٠– ١٩٢٤) الطليعة المعتصمة بحبل الاتحاد والنظام والمدججة بالسلاح، وقضى على النظام الديمقراطي القصير الأمد الذي أقامته الثورة الروسية في مارس ١٩١٧ بالتعاون مع الغرب.

ثم أنشأ لينين أول دولة جماعية تناهض الديمقراطية الغربية. وكان لينين من أتباع مذهب الدولية الذي نادي به كارل ماركس (١٨١٨–١٨٨٣) وكان ماركس يأمل في قيام دولة عالمية اشتراكية على أكتاف الطبقة العاملة في جميع الأقطار. وقد تحولت الإمبراطورية الروسية تحت قيادة لينين إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وكان يُرجى أن يتسع نطاق هذا الاتحاد حتى يشمل الكرة الأرضية كلها. وقد منحت القوميات المختلفة داخل الاتحاد السوفيتي الحكم الذاتي الإقليمي والحق في استخدام لغتها الخاصة وتنميتها كما منحت المساواة التامة. ولكن الحرية القومية داخل الدولة الجماعية أمر لا يمكن التفكير فيه شأنها في ذلك شأن الحرية الفردية. فجميع الأفراد وكافة الجماعات يجب أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً لنظام واحد يفرضه الحزب الشيوعي والمذهب الشيوعي. وكانت الغلبة في الاتحاد السوفيتي للعنصر الروسي الكبير من الناحية العددية والثقافية.

وقد تدعم مركز هذا العنصر بصورة أخذت تزداد وضوحاً في العقد الرابع والخامس من هذا القرن. وفي أواخر أيام يوسف ستالين (١٨٧٩–١٩٥٣) خليفة لينين، عادت إلى الظهور تلك النزعات الصقلبية التي تهتم بتأكيد الطابع الخاص الذي ينفرد به الشعب الروسي كما تهتم برسالته العالمية، وقد أدى ذلك إلى أن رفع كثير من القوميات غير الروسية في

الإمبراطورية الروسية الشاسعة لواءَ المعارضة ضد سيطرة موسكو ولاسيما بين الأكرانيين في الغرب والشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى السوفيتية.

الفاشية:

كانت الفاشية حركة تدعو إلى إلهاب الشعور القومي منذ بدايتها مع كونها حركة جماعية كبرى مناهضة لحضارة الطبقة الوسطى في الغرب، في حين أن الشيوعية لم تكن ترتبط بفكرة القومية في نشأتها الأولى مع كونها أكبر حركة جماعية متطرفة. وقد تولت الفاشية لأول مرة زمام السلطة في إيطاليا تحت قيادة بنيتو موسوليني (١٨٨٣- ١٩٤٥) وذلك "بالزحف على روما" في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ولم تعد الفاشية تؤمن -كما يؤمن مازيني- بانسجام المصالح القومية المختلفة بل كرست نفسها لإعداد الشعب للكفاح "الذي لا مفر منه" الكفاح الذي يبني حياة الأمة، كما حملت لواء الدعوة إلى توفير أسباب النماء، وزيادة عدد السكان، تدعيماً لقوة الأمة وإلى وقوف جميع السكان على قدم الاستعداد العسكري. وقد دعا موسوليني الشعب الإيطالي إلى القيام برسالته في إعادة أمجاد روما القديمة، وشجع عبادة الإمبراطورية الرومانية القديمة بكل طريقة ممكنة. ودعت الفاشية إلى إتباع السلطان المطلق على الأمة فأصبحت الأمة هي الحكم الأعلى وخدمتها هي الواجب الوحيد الأسمى. وترى الفاشية الخير كل الخير في الأعمال والأفكار والعواطف التي تساعد على زيادة قوة الأمة، كما ترى أن خدمة الأمة هو الهدف الرئيسي للتربية الفاشية التي

ترسم لأفراد الشعب حدود الأفكار والعواطف للشعب شأنها في ذلك شأن التربية الشيوعية.

وكانت الفاشية تعد في الأصل ظاهرة إيطالية ولكن لم تنته سنة ١٩٣٦ حتى سرت المبادئ الفاشية- بدرجات متفاوتة- بين كثير من حكومات البلاد المختلفة في أوروبا الوسطى والشرقية بل لقد سرت إلى آسيا وأمريكا اللاتينية. وكان ثمة تفاوت في أصول المذهب وفي رموزه الخارجية تبعاً للتقاليد القومية الخاصة في كل بلد من البلاد. ففي سنة ١٩٢٧ أسس كرنليوزيليا كورينو في رومانيا فيلق اركنجل ميخائيل لإحياء رومانيا المسيحية من الناحية الدينية والعنصرية. وتطور الفيلق فيما بعد إلى منظمة إرهابية باسم الحرس الحديدي، ولما حلت الحكومة هذه المنظمة تحولت إلى حزب باسم "كل شيء للوطن" وفي ٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ أقام القائد جونيس متكساس في اليونان نظاماً فاشياً، واعتبره بداية "الحضارة الهلينية الثالثة" واتخذ التحية الاسبرطية رمزاً له. وفي السنة نفسها أحيا الفلانخ في إسبانيا حلم الإمبراطورية الإسبانية الكبرى في عصرها الذهبي الذي سعت فيه إلى نشر حضارتها الكاثوليكية في العالم بأجمعه وبسطت سلطانها في الأمريكتين وفي البحار الجنوبية. وكذلك قامت في اليابان منظمات إرهابية وطنية من شباب الضباط والطلبة تهدف إلى القضاء على آثار الحرية الغربية والتجارة الغربية وإعادة اليابان إلى حظيرة دينها القديم وفضائلها القديمة. وفي أمريكا اللاتينية هب الإنتجراليون في

البرازيل والبيرونستاسيون في الأرجنتين فأذكوا لهيب القومية الوطنية والسيطرة القومية لمناهضة الولايات المتحدة التي تقوم حضارتها على أساس الحرية والتجارة.

وقد أكد موسوليني لسامعيه في ميلان في ٢٥ أكتوبر ١٩٣٢ أن إيطاليا الفاشستية ستتزعم العالم "إنني أقول لكم وأنا مطمئن الضمير أن القرن العشرين سيكون قرن الفاشستية، قرن السلطة الإيطالية، القرن الذي ستصبح فيه إيطاليا للمرة الثالثة زعيمة الجنس البشري، ومن ذلك يتضح أن موسوليني شارك مازيني أمله في قيام "روما ثالثة" تتولى زعامة العالم كما تولت زعامته في عهد القياصرة والبابوات إبان العصور القديمة الوسطى. ولكن الأمل في زعامة إيطاليا العالمية كان ضرباً من العبث ذلك بأن الريخ الثالث للاشتراكية الوطنية– وهو الصورة الألمانية للفاشية– الذي آلت إليه مقاليد الحكم في عهد أدولف هتلر (١٨٨٩– ١٩٤٥) في يناير سنة ١٩٣٣؛ والشعبة اليابانية للفاشية الاستعمارية التي تولت زمام الحكم في اليابان سنة ١٩٣٦ والدولة الجماعية الروسية التي كان مركزها في موسكو، وهي "روما الثالثة" بالنسبة للصقالبة– كل أولئك كانوا ينافسون روما منافسة قوية في سعيها إلى زعامة العالم. وفي كل هذه الحالات اتسعت نظرة القومية الجماعية فصارت تطمح إلى السيطرة العالمية وهي سيطرة تختلف اختلافاً أساسياً عن نزعة السيطرة المحدودة التي سادت في القرن التاسع عشر. وقد بررت "القومية الجديدة" كفاحها الدامي ضد

أعـدائها الألـداء وقسـوتها في تصـفية الـنظم القديمـة محتجـة بالضـرورات التاريخيـة وتحقيـق الرسـالات القوميـة المكتوبـة في الأزل والاستجابة لـوحي الماضي السحيق.

الفصل الثامن

انتشار القومية في العالم

كان مؤتمر الصلح المنعقد في فينا سنة ١٨١٤ يهدف إلى كبح جماح العناصر القومية التي تجنح إلى الثورة. على أن هذه العناصر ازدادت عنفاً وشدة خلال القرن التالي، وظلت تنتشر في بلاد جديدة يوماً بعد يوم إلى أن جاءت معاهدة الصلح في سنة ١٩١٩ فقضت قضاء مبرماً على النظام الذي أقامه مؤتمر فينا.

وقد نشأت دول قومية جديدة في سائر ربوع أوروبا الوسطى وأوروبا الوسطى والشرقية واتسع نطاق الدول القومية القديمة التي برزت إلى الوجود في القرن التاسع عشر تبعاً للمبادئ التي تنادى بأن يكون لكل أمة الحق في تقرير مصيرها. ومع ذلك فقد خابت آمال الجليل الذي عاش سنة ١٨٤٨ في أن يؤدي الاستقلال القومي إلى تحقيق السلام والحرية، وهي الآمال التي كان يشاركهم فيها أهل الولايات المتحدة والرئيس وودرو ولسون. وقد تأثرت القومية في البلاد الغربية الحديثة بالتقاليد الفكرية والأوضاع الاجتماعية، فكانت تمثل حركة تدعو إلى قيام مجتمع مفتوح والسعي وراء سعادة الفرد وضمان الحريات المدنية وتحرير الفكر، ثم فقدت القومية كثيراً من نفوذها في الغرب عقب الحرب العالمية الثانية، وازداد الاتجاه نحو التعاون العالمي ازدياداً سريعاً، وصارت فكرة اتحاد البلاد الأوربية الغربية واتحاد دول الأطلنطي تحمل في طياتها من الآمال في تأمين

السلام وتوسيع نطاق الحرية الفردية أكثر مما تحمله القومية. ومن ناحية أخرى أخذت الشيوعية في الشرق تنوه بذكر السيادة القومية على نحو لم يسبق له مثيل في أي وقت مضى، وأصبحت القومية هي القوة الوحيدة المسيطرة في هذه البلاد.

وحينما سرت القومية إلى أوروبا الشرقية ثم إلى آسيا فيما بعد، وحلت ببلاد تختلف تقاليدها عن التقاليد السائدة في الغرب، وتتعارض غالباً مع الأساليب الغربية الحديثة- اتجهت القومية نحو قيام المجتمع المغلق الذي لا يصبح للفرد فيه وزن حيال قوة المجتمع وسلطانه، وصارت القومية تعد علاجاً عاماً لكافة المشكلات إلا أن جنوحها إلى اتخاذ الإجراءات الحاسمة العنيفة جعلها عرضة للتأثر بالنزعات الشيوعية.

ولم يؤد "تحرير" كثير من القوميات في القرن العشرين إلى تعزيز الاتجاه نحو السلام والحرية، فالقوميات التي كانت تطالب بالتحرر من أغلال الظلم والاضطهاد صارت هي نفسها تصب جام الاضطهاد على رأس غيرها وثارت منازعات عديدة حول الحدود التاريخية والطبيعية وانهارت نظم الأمن التي استقرت ردحاً من الزمن دون أن ترسي دعائم جديدة للسلام على أرض صلبة. وكانت بعض الدول القومية الجديدة التي اتسعت رقعتها مثل بولندا وتشيكو سلوفاكيا وإيطاليا ويوغوسلافيا ورومانيا تضم أقليات تغلي بالأحقاد والإضغان. ومن الأمور العظيمة التي استحدثت عقب الحرب العالمية الأولى وكان يرجى أن تعود بأطيب الثمرات تلك الاتفاقات

الدولية التي نصت على أن يكون لعصبة الأمم حق المراقبة والتدخل ضماناً لحماية الأقليات ولكن القومية حالت دون تنفيذ هذه النصوص. بل لقد كانت القوميات صاحبة السيطرة في بعض الدول القومية الجديدة– التشيك والسلوفاك في تشيكو سلوفاكيا والصرب والكروات في يوغسلافيا– يعادي بعضها بعضاً على الرغم مما يربطها من الصلات الجنسية واللغوية. وقد حالت هذه الإضغان والأحقاد التي فشت بين الدول القومية الجديدة دون تعاونها في الميدان السياسي والاقتصادي مما هيأ الأسباب لغزو أوروبا الوسطى وأوروبا الوسطى والشرقية على يد ألمانيا الاشتراكية الوطنية أولاً ثم على يد روسيا الشيوعية. وهكذا ظهر أن السيادة والاستقلال القوميين اللذين تضاعف شأنهما وأحيطا بهالة من القداسة عقب الحربين العالميتين– ونتيجة لهما– لم يساعدا على ازدياد الحرية الفردية وتأمين السلام العالمي.

القومية في الشرق الأوسط:

لقد تم تفتيت الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى وأرادت القومية اليونانية أن تعيد على أنقاضها الإمبراطورية اليونانية القديمة والإمبراطورية البيزنطية فنزلت الجيوش اليونانية سنة **١٩١٩** في غرب آسيا الصغرى (الأناضول) مقر المدن اليونانية المشهورة في القديم، وموطن كثير من اليونانيين الأرثوذكس ذوى اليسار. وقد أثار غزو هذه البلاد التي تعد قلب الوطن التركي شعوراً قومياً جديداً بين الفلاحين الأتراك. فقاموا بقيادة

مصطفى كمال- كمال أتاتورك فيما بعد (١٨٨١- ١٩٣٨)- فهزموا اليونانيين شر هزيمة في سنة ١٩٢٢، وأفاء هذا النصر على تركيا عهداً من الاستقلال والمساواة لم تعهده منذ زمن طويل. ونصت معاهدة الصلح على وجوب تبادل السكان فتم نقل الرعايا اليونانيين من المسلمين إلى تركيا ونقل الرعايا الأتراك من اليونانيين الأرثوذكس إلى اليونان وكان هؤلاء أعز نفراً وأكثر مالاً.

وقد استطاعت الحكومتان التركية واليونانية- بنبذهما نهائياً مطامعهما التوسعية وآمالها في عودة المجد القديم- أن توطدا دعائم الصداقة بين الأمتين وتكفلا أسباب التعاون الوثيق في الحقل السياسي والعسكري، وذلك على الرغم من الذكريات المرة التي خلفها الحرب وإجلاء السكان والعداوة السياسية والدينية التي دامت على مر القرون. ويعادل ذلك في الأهمية أعمال أتاتورك الداخلية إذ غير الأوضاع الدينية في الدولة والمجتمع، وحول تركيا إلى جمهورية لا دينية حديثة وأدخل القوانين الأوربية ووضع الأساس لصبغ الحياة التركية بالصبغة الغربية والديمقراطية الحديثة. وسارت على نهجه بلاد إيران المجاورة بقدر ما سمحت ظروفها. وكان لأعماله أثر في بعض الشعوب الإسلامية الأخرى التي تغيرت أوضاعها تغيراً سريعاً بعد سنة ١٩٢٠.

ولم يكن يوجد من الدول الإسلامية المستقلة عشية الحرب العالمية الأولى سوى ثلاث منهما اثنتان- تركيا وإيران- ألح عليهما "المرض"

وتضعضعت فيهما الأحوال. أما الثالثة- أفغانستان- فكانت تعيش في حالة بدائية وفي عزلة عن العالم ثم تدعمت بعد عشرين عاماً من ذلك أركان تركيا وإيران إلى درجة لم تكن متوقعة في سنة ١٩١٥ وكانت أفغانستان في طريقها إلى الأخذ بروح العصر. ثم بررت إلى الوجود سلسلة من الأمم الإسلامية المستقلة لم يكن من المتوقع في سنة ١٩١٤ أن يوجد منها سوى القليل. وتمتد هذه السلسلة من شمال أفريقية إلى البحار الجنوبية وهي ليبيا ومصر والسعودية والأردن وسوريا والعراق وباكستان واندونيسيا. ولكن الشعور القومي السيامي في هذه البلاد كان يفوق الشعور بالرابطة الإسلامية. وقد فشلت المحاولات التي بذلت لإحياء الخلافة (ألغاها مصطفى كمال في تركيا سنة ١٩٢٤) بقصد التفاف الأمم الإسلامية حول مدينة مكة المقدسة وانضوائها تحت الزعامة العربية، إذ كان العرب هم أول من أخذ بناصر الإسلام والخلافة. ولكن القومية والأحقاد بين الدول الإسلامية المختلفة وزعمائها تغلبت على التأثير السياسي للرابطة الدينية. ولم تتوطد الصلة إلا بين الدول العربية بجامع اللغة والتقاليد المشتركة وبجامع العداوة المشتركة نحو إسرائيل والخوف منها.

القومية في آسيا:

لقد استمر الاتصال بين الشرق الأوسط والغرب قروناً كثيرة فالإسلام والمسيحية يشتركان مع اليهودية والحضارة اليونانية في أصول كثيرة. ولكن الأمر يختلف عن ذلك في الهند والشرق الأقصى إذ أن

الاتصال بين هذه البلاد والغرب لم يتم إلا منذ قرنين من الزمان وهو اتصال فرضته أوروبا على آسيا. وكانت أوروبا عرضة لغارات الدول الآسيوية المعتدية منذ عهد الحروب الفارسية التي شنتها الإمبراطورية الفارسية على اليونان إلى عهد الغارات التي قام بها الهون والمغول وأخيراً ذلك الحصار الذي ضربته الجيوش العثمانية على فينا. ولم تنعكس الآية إلا في العصور الحديثة.

وكان تقدم الغرب، والسبات الذي أصاب الحضارة الشرقية مما هيأ الأسباب لبسط سيطرة أوروبا على الكرة الأرضية وما أعقب ذلك من انتشار النظم السياسية والاقتصادية الأوربية. وقد أثرت المبادئ الأوربية التي تنادي بالحرية وتحكيم العقل، في زعماء البلاد غير الأوربية من أهل روسيا وآسيا، فغيروا أساليب الحياة التقليدية التي كانوا يرسفون في أغلالها، واقتبسوا من الغرب أساليب الإدارة الحاذقة والأنظمة القضائية النزيهة، والحرية المنظمة، وإن كان تشدق الغرب بتفوقه أثار فيهم شعور الاستياء العميق.

القومية في الهند:

لعل أهم ما خلفه الحكم البريطاني في الهند هو إيجاد خميرة قوية فيها. والهند قارة صغيرة تلتقي فيها حضارة الإسلام وحضارة الشرق الأقصى. وقد أثارت فيها السياسة والأساليب البريطانية الرغبة في الحرية الفردية والحكم الذاتي ولم يكن أحدهما معروفاً في الشرق من قبل. وفي سنة ١٨٣٥ اقترح المؤرخ البريطاني توماس ماكولي (١٨٠٠- ١٨٥٩) بوصفه

رئيساً للجنة التعليم العام في الهند أن يقوم التعليم في الهند على دراسة العلوم الطبيعية وتطور الحرية من عهد اليونان القدامى إلى انجلترا الحديثة "ربما حان اليوم الذي يتسع فيه الأفق العقلي عند جمهور الهنود في ظل هذا النظام بحيث لا يصبح هذا النظام وافياً بالغرض، وربما حان اليوم الذي يتهيأ فيه لرعايانا الاستعداد لحكم أفضل بعد تعودهم الحكم الصالح، وقد يصبون إلى اقتباس النظم الأوربية بعد تلقي العلوم الأوربية. إنني لا أدري هل يحين مثل هذا اليوم في وقت ما ولكنه إذا حان فسيكون أعظم يوم تفخر به انجلترا في تاريخها".

المؤتمر الوطني الهندي:

انعقد أول مؤتمر هندي وطني في نهاية سنة ١٨٨٥ أي بعد خمسين عاماً من ذلك بالضبط. وقد تأسس هذا المؤتمر بناء على اقتراح أحد الأحرار البريطانيين من الموظفين المدنيين السابقين في الهند وهو يهدف إلى جمع شمل العناصر الهندية المختلفة التي كانت متعادية حتى ذلك الحين، في وحدة قومية شاملة، وتوجيه نهضة الأمة بعد التئام شملها على هذا النحو توجيهاً عقلياً وخلقياً واجتماعياً وسياسياً، وتعزيز الرابطة التي تجمع بين بريطانيا والهند وتغيير كل ما من شأنه أن يحيف أو يضر بمصالح الهند. ولأول مرة في تاريخ آسيا أقام المؤتمر منبراً عاماً يعبر عن الأماني السياسية ويمثل وحدة الأمة التي تسمو على كافة الفروق الجنسية والطبقية والدينية واللغوية والإقليمية وهي الفروق التي لم يكن من الممكن إزالتها من قبل.

وذلك أن التفرقة العنصرية والطبقية كانت في الهند الهندوسية أقسى وأشد منها في أي بلد آخر، فلم تكن في الهند لغة ولا رابطة سياسية مشتركة قبل أن تنشئ الإدارة البريطانية تلك اللغة والرابطة.

ومع أن معظم أعضاء المؤتمر كانوا من الهندوس فقد تولى رياسته في خلال الثلاثين سنة الأولى من حياته ثلاثة من المسلمين وأربعة من الانجليز وبارسي واحد، وقد تولى العضو الإنجليزي رياسته مرتين، والبارسي ثلاث مرات. وكانت الدعوة لحضور هذا المؤتمر تحمل هذه الكلمات "هذا المؤتمر يكون بصورة غير مباشرة جرثومة البرلمان الوطني وإذا استقام أمره فسيصبح في القريب رداً مفحماً على من يزعمون أن الهند لا تزال غير صالحة لأي نوع من أنواع النظم النيابية". وقد حدد رئيس المؤتمر في خطبته الافتتاحية هدف المؤتمر بأنه "استئصال شأفة التعصب الجنسي الديني والإقليمي بين جميع محيي هذه البلاد عن طريق الاتصالات الشخصية المباشرة، وتنمية وتعزيز عواطف الوحدة الوطنية التي نشأت في عهد لورد ريبون المحبوب الخالد الذكر (وكان لورد ريبون أحب نواب الملك إلى الهنود وقد شغل منصب نائب الملك من سنة ١٧٨٠ إلى ١٨٨٤).

ثم انتقلت زعامة المؤتمر في القرن العشرين من الغربيين الأحرار إلى المتطرفين من الهنود وكان أول زعيم لهم هو بال غندهار تيلاك (١٨٥٦-١٩٢٠) وكانوا يستمدون إلهامهم من ماضي الهند ومن الجماهير المتمسكة بالدين الصحيح. وقد أثاروا روحاً قومية عنيفة شبع دينية وتابع المؤتمر

الهندي الوطني بزعامة غاندي (١٨٣٩– ١٩٤٨) سياسة تيلاك مع الحرص على سياسة عدم العنف. وقد نجح في إثارة جماهير الفلاحين الهنود بأسلوب حياته ودعوته الخلقية. وما انتهت سنة ١٩٣٥ حتى أصبح المؤتمر بحق "برلماناً وطنياً" يمثل الأمة وتسير وراءه جماهير الهندوس وذلك حين قررت الحكومة البريطانية رسمياً لأول مرة رفع الهند إلى مرتبة الدمنيون ولم يمض سوى عقد من السنين بعد ذلك حتى أصبحت الهند أمة مستقلة على أن المسلمين الهنود لم ينضموا إليها إذ طالبوا بالاستقلال عن حكم الهندوس، وانشأوا الرابطة الإسلامية الهندية لمعارضة المؤتمر، وقرروا تحت زعامة محمد علي جناح ١٨٧٦– ١٩٤٨) إنشاء أمة إسلامية مستقلة (باكستان).

القومية في الشرق الأقصى:

لقد تغيرت النظرة السياسية كلها في آسيا خلال الفترة التي دامت نصف قرن من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٩٣٥ وكان الحادث الحاسم الذي أدى إلى هذا التغير هو انتصار اليابان على الروسيا سنة ١٩٠٥ فقد دل هذا الحادث على إمكان انتصار "شعب" متأخر– بواسطة النظم والأساليب الفنية الغربية– على دولة حربية أوربية عظيمة فتحت حتى ذلك الحين بلاداً آسيوية أكثر مما فتحته أية إمبراطورية "بيضاء" أخرى، كما هددت بالاستيلاء على منغوليا ومنشور يا وشمال الصين وجميع كوريا. وقد أيقظ هذا الانتصار غير المنتظر آمالاً جديدة وأثار وعياً ذاتياً جديداً في

شعوب آسيا وأفريقية. ذلك بأن مملكة الجزيرة الصغيرة في الشرق الأقصى قد أصبحت تقف على قدم المساواة مع الأمم الغربية بعد جهود دامت نصف قرن من الزمان ثم أصبحت تضارع أو تفوق هذه الأمم في سياستها الاستعمارية والتوسعية. ألا يجب على شعوب أخرى "متأخرة" أن تسير على منوالها؟ لذلك اجتاحت آسيا طائفة من الحركات القومية الإصلاحية في أعقاب انتصار اليابان، فانهارت في تركيا وفارس والصين دعائم الحكومات الاستبدادية الدينية القومية تحت ضغط الحركات الثورية القومية، وكانت أهمها ثورة الصين بقيادة سَن يات- سِن (١٨٦٦-١٩٢٥) الذي أنشأ الكومنتانج (حزب الشعب القومي) ووضع في كتابه سان مين شو مبادئ الشعب الثلاثة التي قام عليها كيان الأمة الصينية. وقد أهاب في يناير ١٩١٩ "بالوطنيين الصينيين" أن يقسموا معه هذا القسم "أقسم على رءوس الأشهاد صادقاً مخلصاً بأنني منذ الآن سأهدم القديم وأبني الجديد وأحارب في سبيل حق تقرير المصير، وأكرس كل قواي لتأييد الجمهورية الصينية وتحقيق الديمقراطية عن طريق المبادئ الثلاثة.... وفي سبيل تقدم الحكم الصالح وسعادة الشعب وسلامه الدائم وتعزيز دعائم الدولة باسم السلام في جميع أنحاء العالم".

بيد أنه لم تقم في الصين- كما لم تقم في البلاد الشرقية الأخرى- أية أسس للديمقراطية الحرة والقومية الحديثة، إذ تحطمت القوى المتماسكة التي يقوم عليها النظام القديم دون أن تظهر قوى جديدة، فسادت الفوضى

فترة طويلة من الزمن. ولكن الحال كانت تختلف عن ذلك في اليابان وتركيا حيث احتفظت الطبقة الحاكمة القديمة بحيويتها ووجهت حركة التحول من القديم إلى الجديد كما كانت تختلف في الهند وسيلان حيث قامت الإدارة البريطانية خلال عشرات السنين بتدريب طائفة من الموظفين المدنيين من أهل البلاد وطبقة كبيرة متعلمة على جانب كبير من المقدرة والكفاية والعلم والنزاهة.

وعلى الرغم من الفوضى السياسية في الصين فإن توثق الاتصال بينها وبين الغرب قد خلق نهضة ثقافية رائعة وذلك في جو حافل بالتقاليد العلمية. وقد أنشأ الطلاب الذين تلقوا العلم في الخارج "موجة جارفة" من التفكير الخلاق عند عودتهم إلى الوطن أدت إلى تغيير وجه الصين الفتاة على الرغم من أنها لم تدم سوى عشر سنين ما بين سنتي ١٩١٦، ١٩٢٦ وكان التعليم في الصين يسير حتى ذلك الحين على أسس تقليدية قديمة وبلغة لم يجربها التخاطب طيلة ألفي سنة ولا يفهمها الشعب. وقد حبذ هوشي– كبير علماء الصين الحديثة– استعمال لغة التخاطب في الأغراض الأدبية وذلك في مقالة له بمجلة "الشباب الجديد" الشهرية. وقد استعمل الطلاب الصينيون هذه "اللغة الوطنية" الحية لأول مرة سنة ١٩١٩ وذلك في نضالهم الوطني ضد اليابان. وسرعان ما أصبحت هذه اللغة لغة التعليم العام وأداة في تعليم الجماهير. وقد شرع هوشي في تمحيص تراث الصين الثقافي بالاشتراك مع زملائه في جامعة بكين الوطنية وهم من الشباب

الـذين تلقـوا علـومهم في الغـرب. وحـاولوا أن يمزجـوا بـين المثـل العليـا في الغرب وبين صفوة تراث الصين.

وقـد كتـب ريتشـارد ولهلـم في سـنة ١٩٢٧ يقـول "علـى الـرغم مـن الأزمـة العالميـة فقـد قامـت الصـين في خـلال سـنوات قليلـة بعمـل ضـخم لم يخطـر ببـال الـبلاد الأخـرى في العـالم ألا وهـو خلـق لغـة واحـدة ومـدارس واحدة. فالمدارس الصينية تعد الآن أداة لجمع شمل الشعب الصيني كله– بطريقـة واحـدة– في وحـدة ثقافيـة واحـدة لم تتهيـأ قـط في أي وقـت مضـى خلال آلاف السنين التي مر بها تاريخ الصين".

وقد حاربت القومية الصينية بقيادة شيانج كاي تشيك (المولود سنة ١٨٨٦) خليفة سن يات– سن في زعامة الكومنتانج كما حاربت القومية الكورية على عهد سنجمان ري (المولود سنة ١٨٧٥) الوطني المحنك، في سبيل الاستقلال والاتحاد القومي ضد المساعي التي بذلتها اليابان لبسط سيطرتها على جميع الشرق الأقصى. وقد أخفقت اليابان في مسعاها ولكن الفوضـى الاجتماعيـة والأدبيـة الـتي ضـربت أطنابهـا في أعقـاب فتوحهـا وهزائمهـا مهـدت الطريـق لقيـام القوميـة الشـيوعية الجماعيـة. أليسـت الشيوعية حليفاً ضد الاستعمار والرأسمالية الغربية؟ وقد رحب الشعب– لما كـان يشـعر بـه مـن التبرم والاسـتياء– بالسـير في طريـق روسـيا نحـو إنشـاء الصناعات الثقيلة والظفر بالنفوذ العالمي الذي يفوق نفوذ الغرب.

انتشار القومية في العالم:

إن القرن العشرين هو أول فترة في التاريخ اتخذ فيها جميع الجنس البشري خطة سياسية واحدة هي القومية. وقد أدى ظهورها في كل مكان إلى بث روح النشاط في الشعب ومطالبته بإعادة تنظيم المجتمع على أساس جديد. ولكن القومية في كل مكان تختلف في طابعها وفقاً للأحوال التاريخية الخاصة والأوضاع الاجتماعية الخاصة بكل بلد من البلاد، على أن انتشار القومية في العالم لم يمهد السبيل لإيجاد مجتمع إنساني يسوده التعاون والاتحاد. وإذا استثنينا تركيا فإننا لا نجد أمة من أمم الشرق الأوسط أو آسيا وصلت قبل سنة ١٩٥٥ إلى درجة من الاستقرار السياسي والاقتصادي تنبئ بنمو الحريات المدنية والإصلاحات الاجتماعية. فالأطماع القومية والاستعمارية بين الشعوب الآسيوية يهدد باصطدام هذه الشعوب بعضها مع بعض كما حدث بين الأمم الأوربية. فالصين لم تقبل بحال ما من الأحوال أن تمنح الاستقلال القومي للتبت أو للشعوب الإسلامية في سنكيانج. بل تحاول على العكس أن تعيد نفوذها الاستعماري السابق في كوريا وأنام. والنزلاء الصينيون في جنوبي شرقي آسيا والنزلاء الهنود في شرق إفريقية– وكلاهما يتمتع بحماية بلاده الأصلية– قد يخلقون مشاكل تعيد ذكرى المنازعات الاستعمارية في الماضي القريب.

وقد أصبحت القومية القوة السياسية والثقافية الحاسمة بين جميع الشعوب والحضارات على وجه الأرض وذلك بعد تمتع الأمم الأفريقية الجديدة في نيجيريا وساحل الذهب بالاستقلال وبعد التحرر الثقافي والاجتماعي الذي ظفرت به العناصر الهندية في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية– وهي عملية كان للمكسيك فيها فضل السبق عن طريق الدستور الجديد الذي أعلن في ٣١ يناير ١٩١٧، و"نهضة الأزنك" ويتضح من ذلك أن القومية– على الرغم من كونها عنصراً عالمياً مشتركاً– عامل قوى من عوامل الانقسام بين الشعوب ما لم تمازجها روح حرة من التسامح والوفاق أو نزعة عالمية إنسانية ذات عقيدة غير سياسية، وإن تأكيدها للسيادة القومية وللميزات الثقافية لا يساعد على تعزيز التعاون بين الشعوب في وقت تزداد فيه التبعية المتبادلة بين هذه الشعوب لأسباب اقتصادية وفنية.

الفهرس